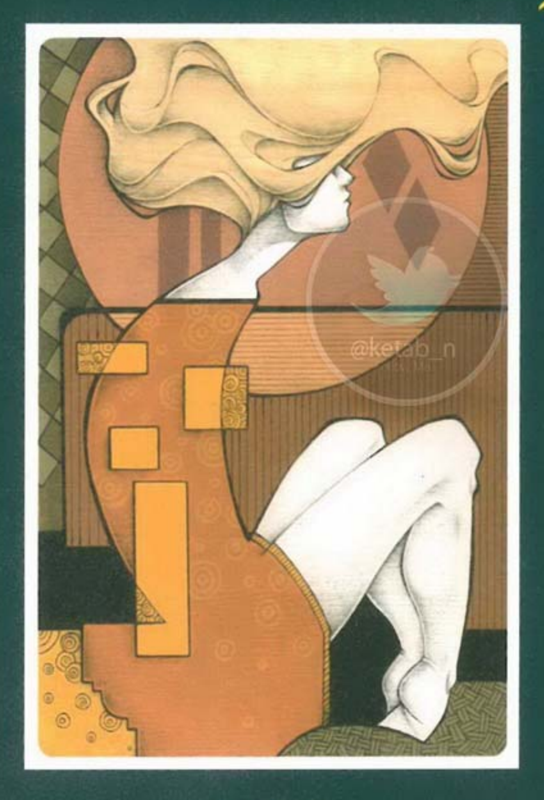
ألبارو كونْكيِرْو

مِرْلين والعائلة



ترجمة

رفعت عطفة



رواية

ألبارو كونْكِيْرو

مِرْلين والعائلة

ترجمة: رفعت عطفة





Autor: Álvaro Cunqueiro
Título: Merlin y Familia
Traducción de: Rifaat Atfé
Editorial: Al- Mada
Año de edición: 2012
Primera edición
NIPO: 503-12-016-7

المؤلف : ألبارو كونكيْرو
عنوان الكتاب : مِرْلين والعائلة
المترجم : رفعت عطفة
الناشر : المدى
سنة النشر : ٢٠١٢

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
www.daralmada.com Email:info@daralmada.com

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

Esta obra ha sido traducida y editada gracias al apoyo del Instituto Cervantes de Damasco y la colaboración de la Editorial Galaxia

ترجم هذا الكتاب ونشر بالتعاون مع كل من:
معهد ثربانتس بدمشق ودار النشر غالاكسيا





تقديم

ألبارو كُونْكيْرو، صحفيّ وشاعر وروائي وذوّاقة في الطعام، منحَ مكتبةَ معهدِ ثِربانتِس في دمشقَ اسمَه، لذلك فإنّ وصولَ أحد أهمّ أعماله مِرْلِين والعائلة باللغة العربية على يد واحدٍ من أهمّ المترجمين، مثل رفعت عطفة، إلى سورية في الذكرى المئوية لولادته، يُشكّل بالنسبة إلينا فرحة كبيرة. تدور أحداث هذه الرواية في غاليثيا (جليقية) حيث يعيشُ الساحرُ مِرْلِين، رابطاً بهذه الطريقة سحرَ هذه المنطقة الإسبانية بالأساطير الآرثرية لفرسان المائدة المستديرة. وبذلك يجمع ألبارو كونْكيِرو بين التراث الأدبي وتقاليد غاليثيا الشعبية، بين السحر والواقع. تتعلّق المسألة بواقع لا يبقى في المحيط الأطلسي بل يصل إلى مناطقَ كثيرةٍ من الأرض، على يدِ ساحرٍ لا ينسى سوريتنا الحبيبة " وكان أن وافقتُ على كلّ شيءٍ وتفاهمت مع القائد العسكري كريستوفوروس، الذي قال لي إنه وبدل أن أتخذ وجهةَ الريح البحرية عليَّ أن أتخذ وجهة الريح الشرقية وأنزل في طرابلس التابعة لأنطاكيا، ومن هناك أتابعُ في سفينة ملكية وأنزل في مرسيليا، ثمّ أتابع في الطريق الفرنسي وأنزل في القسطنطينية، ومن هناك إلى ميراندا في يوم واحد، وأن السيّد مِرْلِين، الذي هو صديق حميم له، سيعيرني ذلك الطريق الذي جاء به من

بريطانيا ملفوفاً على أسطوانة حديدية ويُسمى طريق كيتايون (انزعْ وضعْ)، بحيث إنني ما إن أستقرّ على طريق حلب في سورية،..."

سيعرف القرّاء من خلال صفحاتِ هذا الكتاب سلسلةً كاملة من المغامرات والشخصيات التي تتراوح بين الواقع والخيال، بين الغرب والشرق، كما هو حال الحاج إسماعيل بن سينا روفاس، شيخٌ من الصحراء، خاصي جمالٍ وصاحبُ بساطِ ريحٍ، حظّه سيّئ أنّه شمَّ حبّةَ دراق.

ليس في نيّتي أن أكشفَ عن مزيدٍ من أسرار هذه الرواية، لا أريد أن يحدث لي ما حدث للحاج روفاس، بل أن أتركَ قرّاءَ سوريّة يقطعون الطريق بالاتجاه الآخر، أي أن ينطلقوا من حلبَ ويشرعوا عبر طرقِ ألبارو كونْكِيرْو في رحلة إلى تلك الأرض العجيبة التي هي غاليثيا، تقودهم يد دليل خارق: الساحر مِرْلين.

بابلو مارتين أسورِو
مدير معهد ثِربانتِس في دمشق

مقدمة

عندما بدأنا نُفَكِّر بأن نُقيم نشاطات مختلفةً في المكتبة للاحتفال بمئوية ولادة ألبارو كونْكيْرو، خطرت لنا نشاطات كثيرة، صحيح أنّ معظمَها كان يدور حولَ المؤلّف وتقريبه من المنتفعين من مكتبتنا وتعريف الجمهورِ السوريِّ به ومحاولة تحويله إلى كاتبٍ أكثرَ قرباً منهم. لكن ومع أنّ هذه النشاطات كانت مهمّة إلاّ أنّها بدت لنا غير كافية. فماذا عن أعماله؟ ألا يمضي الاثنان متلازمَيْن، المؤلّفُ وإبداعُهُ ؟

كان على مكتبةِ ألبارو كونْكِيْرو، مكتبةِ مؤلّفِ معهد ثربانتس، أن تستغلّ هذه اللحظة ليس فقط لتقريب الأديب من الجمهور السوري بل وأعماله أيضاً، وكان عليها أن تشارك بفعاليةٍ وبطريقة ما في الاحتفال بمئويّته، ولذلك كان لا بدَّ من التفكيرِ بمشروعٍ يكون مرموقاً، جديداً، شيئاً لم يُفْعَل حتى الآن. ولماذا لا تكون ترجمة أعماله إلى العربية؟ لماذا لا نترجم أكثر كتبه تميّزاً: مرلين والعائلة؟

أعترف أنّه سرعان ما استحوذ علينا المشروع وشدّنا، أوّل ترجمة لعملٍ من أعمال ألبارو كونكيْرو إلى العربية، أوّلُ اقتراب من العالم العربي لإنتاجِ مؤلفٍ كان دائماً مفتوناً ومشدوداً إليه، لكن حتى الآن لم يكن هناك من اعتبر أنّ من المُستطاعِ أن يُتَرجَم إلى العربية، أنَّ من

المستطاع أن يُقَدّم من خلال ثقافةٍ أخرى، على الرغم من أنّه بينهم منذ عام ٢٠٠٦، العام الذي دُشِّنَت فيه مكتبةُ معهدِ ثِربانتِس، التي تحمل اسمَهُ.

هكذا بدأنا نعملُ دونَ أن نكادَ ننتبه. لكنْ مِن أينَ نبدأ؟ بِمَن نتصلُ؟ وماذا عن حقوق المؤلّف؟ هل الترجمة ممكنة؟ أسئلة فائضة بلا جواب، لكنّنا كنّا نعرفُ أنّ جميعها تملك مخرجاً ما، فقط كان يجب أن نعرف في المقام الأوّل مع من نتواصل، وما عداه ننظر فيه تدريجياً

اتصلنا بدار نشر غالاكسيا لنقترحَ عليها فكرتَنا، كنّا نعلم أنّهم يملكون الكثير من حقوق أعمال ألبارو كونكِيْرو وأنهم من يمكن أن يحدد لنا الطرقَ إلى غايتنا.

استُقْبِلَ المشروعُ بترحابٍ مؤمِّل واهتمامٍ كبير على وجه الخصوص. وقد أبدت دارُ النشرِ في كلّ لحظة تعاوناً مثلها مثل أسرة ألبارو كونكِيْرو، التي سرعان ما اعتبرت المشروعَ جديداً، فلم تتردّد في التنازل عن حقوقها للشروعِ بالعمل.

العقبة الأولى أزيحت، صار لدينا حقوق المؤلف، صارت الترجمة ممكنة، لكن ينقصنا الآن تجسيد هذا كلّه، البحث عن مترجمٍ ودارِ نشرٍ يجعلان رؤيةَ هذا الكتاب مطبوعاً ممكنةً، وكان مشروعاً وصار الآن واقعاً.

في هذا الواقع كان الدورُ الأساسيُّ لدارِ المدى ومترجمِ العمل رفعت عطفة، اللذين تعاونا دائماً مع المعهد وكانا صبورين معنا ومع رغبتِنا بالمضيِّ قدماً بهذه الرغبة.

لم يبق غير أن أشير إلى أنّني عملتُ، كأمينةٍ لمكتبةِ معهد ثربانتِس

وبالتالي كأمينةٍ لمكتبةِ ألبارو كونكيْرو، بحماسٍ في هذا المشروع الذي نأملُ ألاّ يكونَ الوحيد وأن يُترجَمَ شيئاً فشيئاً مزيدٌ من أعمال هذا المؤلّف الغاليثي الرائع إلى لغةٍ جذّابةٍ وملهمةٍ كاللغةِ العربية.

ماريّا ترِسا إثكييرْدو ريّا
أمينة مكتبة معهد ثِربانتِس في دمشق

مِرْلين والعائلة

الآن وقد صرتُ عجوزاً ومُنهكاً وفقدتُ مع السنين الدفءَ اللطيفَ للمخيّلة الفتيّة، يخطر ببالي أنّ تلك الأيّام التي قضيتها في زهرة شبابي في غابة إسْملِّ الشاسعة والقديمة ليست أكثر من كذبة؛ أعتقدُ، أنا الكذّاب، أنّ تلك الأيّام ومن كثرةِ ما رويتُها وتخيَّلتُها في ذاكرتي، قد مرّت عليّ حقيقةً، بل إنها شكّلت لي أحلاماً وقلقاً مثل إزميل مسنون بين يدي نجّار كَسِل وخيالي. ملأتْ سنواتُ الحياة أو الخيال تلك، حقيقة كانت أم كذباً، بخيوطها مغزلَ روحي وأستطيع الآن أن أحيكَ قماش هذه القصص، كبّةً فكبّة. عندما اقتربتُ، وقد أكملت التاسعة في عيد الفصح، والقبعة في يدي من باب مولايَ مِرْلين. من كان سيظنّ أنّهم سيملؤون قبّعتي بالسحر الغامض، والفتنة والاختراعات والأعاجيب والتقلبات والشعوذة. لم يحدث، أقولُ، أن مُنِحَ طفلٌ مثلَ هذه الهديّة. أُخرج كما لو من قرن عجيبٍ شريطاً بعد شريط، وحكاية بعد حكاية، وبأمّ عينيّ أتأمّل ذلك الجيش الخليع الذي كان يقصد مِرْلين ومعارفَهُ السبع: كانت تجتمعُ عند مِرلين خيوطُ خيّاط خفيٍّ، كلّ دروب عالم الخيال. هو، المعلّم، كان يعقد العقدةَ التي يطلبونها منه. سترون ذلك.

الجزء الأوّل

ميراندا

غابة إسْمِلٍ

ربّما كان رسمها أفضل من الكلام عنها، إنّها غابة إسمِلٍ، التي تقع على يمين الطريق القادم من جهة ليون. الطريق الذي سلكتُهُ إلى حقل لاس كُلْمِناس، يتوغّل صاعداً مُنْعَطَفاً مُنْعَطَفاً بعد مُنعَطَفٍ عبر حراج إيْريس الكثيفة. يمضي الطريق على ضفّة النهر، وحين يُدرِكُ السهلَ في المنطقة التي يسمونها بّاراداس، يدخل في رامات ومواحل حتى يصل إلى ما يسمونه بونتيغو، وهو جسر خشبيّ منخفض، حيث من المُمتِع سماعُ خببِ خيولِ المسافرين الذين يروحون ويغدون في طريق بِلفيس. الطاحونتان الآن، بناءان من الحجر الأسود، يتشابك فوقهما اللبلاب وينمو، لكنّني ما زلتُ أتذكّر الأيّام التي كانتا تطحنان فيها قمحَ الوادي وشيلم الجبل وكان هناك أشجار تفّاح على امتداد السدود، تسقط الريح بتفاحها في الماء حيث كان هناك دائماً بضع عشرة تفاحة، خضراء أو حمراء، بجانب شبك القناة، ترقص فوق الزبد، بدينة ومصفرة،. الريح دائمة في غابة سنديان موراس، المعتمة جداً والطريق مستعجل على عبورها مروراً بكروم ميراندا المفتوحة، إلى المزارع الفسيحة، إلى الأراضي البور التي تشغل التلال القديمة، وإلى مراعي الملك. ترى إسْمِلٌ من ميراندا وكل ما حولها، قلعة بِلفيس، ومزرعة سييرْبٍ، بحيرة لوس كابوس، وفي النهار

وعند أسفل الباب تقريباً دخان دكاكين حدادة إلْفيّار. وفي الليل كنتُ أنظر كيف كانت تشتعل الأنوارُ في بِلفيس في الأبراج العالية والمتزينة وكيف كانت أنوار إلفيّار بالمقارنة معها تبدو وكأنّها مستريحة على الأرض. حين كانت تجري رياح مِيْرا كان هناك أسباب كي أسمع خبطَ مطارق الحدّادين. من ميراندا يظهر سهل كينتاس كاملاً حتى إلكاسترو وبيادر الشيلم تتماوج كالبحر، على وقعِ النسيمِ وذهابِ وإياب النساء من نبع كُوسْو. سأتذكّر دائماً سياج البيدر، سياج الغار الروماني، العصافير الكثيرة التي طالما سهرتُ على أعشاشها والتينة رامونا الغاوية في نضارتها، عند حافة البيت، بجانب المتبن الكبير، كانت ميراندا نَزْلَ دون مِرْلين.

كنتُ أنام في الإيوان، في حجرة ضيقة فيها نافذة قبيحة تقع فوق السرير الفردي تماماً. شدّني ليلاً حبُّ الصعود إليها والبقاء لأكثر من ساعة أطلّ منها. طبعاً كان ذلك لأجل الأنوار. في ليلِ إسمِلٍ كلّ شيء كان يصيرُ أنواراً. لا أقول أنوار بِلفيس، التي كنتُ أراها تصعد وتهبط، مثل عصافير مشتعلة من نوافذ كلا البرجين، كانت بِلفيس تغرق أحياناً كلها في الظلام، لكن بعد هنيهة كان يشتعل نور صغير، مثل عين طائر الصدى، في شرفة واجهة الاحترام وكان هذا النور يجوب القلعةَ وكنتُ أرى كيف كان ينتقل من حجرة إلى أخرى، أتابعه حين كان ينسكب ويغمز في النوافذ والمزاغل، وفجأة يقوم ببعض الإشارات في أعالي الشرفات. كنتُ أعلم أنّه فانوس قزم القلعة، الذي كان يقوم بآخر جولة له. لن أحكي عن أنوار إلْفِيّار، التي كانت تتلاعب بها أغصان أشجار البتولا، فأنا أتكلّم عن الأنوار التي كانت تمضي في الطرقات، في

الطريق الملكيّ القادم من مِيْرا وطريق كينتاس والطريق القديم الذي كان يغرق في بحيرة لوس كابوس والبحيرة أيضاً وكانت تجري وتتقاطعُ وتجتمع من حين إلى آخر ثلاثاً ورباعاً فتشكّل صلاءً صغيراً في قلب عتمة الليل. لا بدّ أنّ خيولاً تخبُّ كانت تحملها، وربّما تجري بها. وإذا ما أخذ أحدها طريق ميراندا وجاء باتجاهي، بل وبعضها كان يأتي حيّاً فيبدو أنّه يَصْفِرُ، فيشعل الخوف في نفسي مثل دبوس في مئبرٍ، فأدخل في السرير دون أن أتعرّى وأُغطي نفسي بالبطانية حتى الرأس: بطانية مُحزَّزة بالأخضر، كتب عليها من الجانبين بحروف ملونة: دافيد. وكنتُ حقيقة قد سميت دافيد ذاك حامياً لي، بل وكنتُ أصلي له. لكن يخطر لي الآنَ أنّ تلك المخاوف كانت تروق لي... في الفجرِ كانت تأتي نواقيسُ كينتاس وهديل الحمام على السطح لتراني، وهي ما زالت تشكّل بعضاً من أحلامي. وذات صباح من صباحات موسم الحصاد حدثَ أن رأيت القارب الشراعي وفي صباحٍ خريفيٍّ آخرَ رأيتُ في أعالي كاسترو، دعامة الذهب. طويلٌ، طويلٌ الشتاءُ في إسمِلٍّ، وإذا ما حدث ولم ينزل قمرُ جليدٍ فكلّه مطر وثلج. لكنّ الصيف عذب وكذلك الخريف.

وكان السيّد مِرْلين يخرج أحياناً إلى البيدرِ ليقيم احتفالاً، فيصبّ في كأس مليء بالماء قطرتين أو ثلاثاً من مشروب كحولي كان يسميه "مشروب البلاد" ويبتسم تلك الابتسامة المفتوحة التي تملأ وجهه الكريم، كما تملأ الشمسُ الصباحَ، وكان يسألنا بأيِّ لونٍ تُريدون أن تروا العالم، وفي كُلّ مرّة يأتيني الدورُ بالرد كنتُ أقولُ بالأزرق وعندها كان يقذف دون مِرلين بذلك الماء في الهواء فيصيرُ لثانيةٍ العالمُ، كلّ العالم، إسمِلٍّ وكلّ ما حولها، برجا بِلفيس الأبيضان، الحمائمُ والكلبُ نِيْ، وشعر

مانولِينيا الأشقر، ولحية موْلاي البيضاء، والجواد المرقط، أشجار بتولا كينتاس وقُبَّرة تاج كاسترو، كلّ شيءٍ يصيرُ سحابةً زرقاء طويلة تتلاشى ببطء. كان السيّد مِرْلين يبتسم بينما هو يُجفِّفُ الكأس بمنديل أسود. إسمِلٍّ غابة فسيحة وقديمة مَصبوغةٌ في ذاكرتي بالأزرق، كما لو أنّ قمراً هائلاً وفاتراً يحطّ فجأة على الأرض.

بيت مِرلين

كان السيّد مِرْلين، كما هو معروف من القصص، ابن عازبة ومن أمّة غريبة، جاء إلى ميراندا وارثاً من جدّةٍ له من جهة الأم، لكّنه مضى على ذلك من الزمن ما لا يجعلُ أحداً يتذكَّرُ الحدثَ جيّداً. وحدها عجوزٌ من كينتاس كانت تتذكّر قليلاً أنّهم حملوها في طفولتها إلى جنازةِ سيّدةٍ من ميراندا وأنَّ دون مِرْلين كان يمضي خلف خوري ريبغوسا، الذي كان يحسن الإنشادَ، مرتدياً السوادَ ولفاعةً حمراء وكانت لحيَةُ مولايَ قد ابيضت وقتها، وتتذكّر العجوزُ أيضاً أنّ كونت بِلفيس كان يسير في الجنازة معتمراً قبّعةً مُراشةً ومعه قزمه، حامل الذيل وأنَّ ناحبات قدمْنَ من لوغو كي يقمن بالبكاء، وأكثرهنّ فتوّةً يمضين حافياتٍ قدماً وساقاً لم تكن السنون تمرُّ على دون مِرْلين فيشكو منه، لكن مرّات قليلة، كما لو أنّه سحرٌ أسودُ، فهو بكينونته يُظهر أنّه صريح ومُنْفَتِح، سعيد بالعالم وثرثار، سهل الابتسام جداً؛ كانت عيناه الفاتحتان وجبينه العالي والأنوف بل وتلك الحركة التي كان يُداعب بها جبينه بيده اليمنى حين كان يُحدِّثُكَ كلها كانت تُساعده على أن يكون صريحاً. كان قليل اللحم، لكنّه كان متناسباً جداً مع عرضه وكان كريماً ومشّاء جداً. لكنّني لم أكن أريدُ الآنَ أن أُصوِّرَ السيّد مِرْلين، بل أن أُقدّم كشفاً عن بيته، حين كنتُ

أعيش في ميراندا نصفَ خادم ونصف سائس، بأجرٍ قدره أحد عشر بِسو في العام مع الطعام والحذاء الذي أستهلكه وتصليح السترة والسروال، إضافة إلى أربعة أزواجٍ من الجوارب بمناسبة العام الجديد: زوجان أبيضان وزوجان أسودان.

كانت الأولى في البيت، بعد دون مِرلْين، هي سيّدتي ومولاتي دونيا خِينبرا. كانت سيّدة في غاية الحصافة، ترتدي سترتها القصيرة المطرّزة بالخرز صيفاً وشتاءً. أيضاً لم تكن من البلد، وتحتبل قليلاً بالكلام. كان شعرها أشقر جميلاً وطويلاً جداً تجمعه في كعكة كبيرة، لم أرَ في حياتي بشرة أنصعَ من بشرتها. كانت طويلة، أقرب إلى البدانة، كبيرةَ الخطوِ وكان من خاصّتها الظرافة في إصدار الأمر، نعم كانت متهوّرة قليلاً، هذا صحيح، وجافّة أحياناً لكنّها حسنة المعاملة مع الناس والماشية؛ لا تكادُ تخرجُ من البيت وتجلس مساءً في الشرفة تُطرِّزَ قطعةَ قماش كبيرة تلفّها شيئاً فشيئاً على قصبة من الفضّة. في الشتاء كانت تستعملُ قفّازات صوفية وفي الصيف قفّازات مخرّمة من الكتّان الأبيض عليها أزهار مطرّزة. كانت تتوقّف من حين لآخر عن التطريز كي تحكَّ ظهرَها بكفّ من الشَمْشاد مركَّب على عصا من البندق. كانت تنطوي تلك السيّدة دونيا خينبْرا على شيء من الحزن في عينيها وإذا ما ابتسمت لك، وهذا لم يكن من عادتها، كانت كما لو أنّها تطلب منك صدقةً بأن تبتسم أنت أيضاً. كانوا يقولون إنّها أرملة ملك عظيم، مات في الحرب، وإنّها علمت بالخبر من غراب في أثناء زيارة قامت بها إلى ميراندا لتُجرّب مشطاً ذهبياً. كانت وقورة وكان دون مِرلْين يذكرها بلقبها حين يُكلّمها ولم تكن تضع يداً في المطبخ، ما لم يكن من أجل أن تُزيّن

أطباق الفواكه والحلوى أيّام الأعياد. أحبّتني، أقول، وكانت تكوي لي أيّامَ الآحاد منديلاً أبيضَ، كي أمخطَ حين أكون على المائدة. حين كان يأتي ناس من عليّة القوم، يصعدُ الزوار إلى الصالون ليُقبّلوا يدها فتُريهم دونيا خينبْرا مُطرَّزَها، تَنشره عن قصبة الفضّة، أتذكرُ السيّد ديان دِ سانتياغو، حين جاء إلى ميراندا كي يشتري كسارةَ جوزٍ لمجلس المدينة ويقرأ بنظارته في المطرّز ويقول لسيّدتي إنّه يجد أنّ السيّد ترستان شبيه جداً وعليل وأنّ دونيا إيسلودا تكاد تتكلّم. كنتُ في باب الصالون بانتظارِ أن تأذن لي كي أقدِّمَ لسيادته قدحاً من نبيذِ ختافِ مع البسكويت المغضَّن.

من كانت تشرف على اليد العاملة هي مارثِلينا، الخادمةُ البالغة من العمر قرابةَ الأربعين، المُكورة والقصيرة، شديدة الحمرة وكثيرة الثرثرة وكانت تُعتبر طاهية بجدارة. كانت لها يد لكلّ شيء، لأعمال المنزل، لماشية الإسطبل والحظيرة، للخادمات، للفلاحة والسوق والدفع. كانت تسحرها الأشياءُ الجديدة وحين يأتي غندور زائراً تتعلّق به وتعشقه لأكثر من شهر، حتى ولو كان خائناً. كانت تمرّر نفسها على أنّها حفيدة لمولاي وحفيدة لكاتب أثوماراس العمومي وأكثر ما كان يروق لها بعد مناداتها بِدونيا مارثِلينا هو أن يُصدّقوا منها سِرَّ من كانوا يأتون لاستشارة دون مرِلْين.

- هذا الرجل الذي جاء البارحةَ ليلاً كان ساعي بريد ملك فرنسا، ويخافُ أن تُجْهِضَ ابنةٌ له عَرَفْتُهُ من المهماز الأسود ومفتاح الفضّة الذي يحمله على خصره.

كانت مارثِلينا تعرفُ كلّ شيء، علاماتِ كل الذين يذهبون ويأتون والتشابهات السبعة في كلّ قصّة. كانت بالنسبة إليّ عرّابة طيّبة، باستثناء أنّها تُشيعُ، ساخرةً منّي، أنّني كنتُ أقرص الفتيات. أمّا بالنسبة إلى الجواد توربين والكلبين نِيْ ونورِسْ وللذهاب إلى مِيْرا في طلبٍ، وتطعيم الكرز ومحاسبة العمال الذين يأتون للعمل، الذي كان يقوم به كلّه هو خوسِه دِل كايرو، الذي كان فتى فارع الطول، غائرَ الكتفين، أجعد الشعر، صغير وناعسَ العينين، شديد السخريّة، على رَجُلٍ أغيد هكذا كانت ترتاح اليدان الصغيرتان الناعمتان وكان ماهراً في إصلاح كلّ شيء ومولعاً بالصيد. ونظراً لأنّه كان ساخراً فإنّه لم يكن يصادق الناس كثيراً. لكنّه كان شجاعاً يخرجُ في الليل المطبق إلى لوغو مجتازاً منطقة إيْريس، حيث كان الذئب يحيي الناس يوميّاً. كان الكلب نِيْ ينام عند قدم سريره وصار ينظرُ إليّ بمودّة حين خطر لنورِسْ، أن يأتي إلى غرفتي ليقضي الليل عندي، وهو كلب يصيد ذئب الماء، أسودُ كالليل، لكنّه ظريف يرتدي سروالاً داخلياً أبيض، فظٌّ مع الغرباء، وديعٌ جدّاً مع أهل البيت. كنتُ أنامُ على وقعِ شخيرهِ المتواصل. وكان خوسِه دِل كايرو، بعيداً عن صخب سخرياته، رجلاً صموتاً. كان يأكل على المائدة مع السيّدين أيّامَ الأعياد وكان يرفع قبّعته للرهبان عن غير طيب خاطرٍ.

بعدها كانت تأتي مانولِينيا دِ كارلوس، بشعرها الأشقر وفمها الصغير، وشفتيها الحارّتين مثل الحليب لحظة حلبه، تساعد في المطبخ وأمور البيت، تليها كاسيلْدا التي كانت صبيّة أعمى أوتِسْ، تعتني بالماشية والبستان. ثم أخيراً آتي أنا الذي كنتُ تحت إمرة السيِّد مرلْين.

كان البيت في أعلى ميراندا، كبيراً، حسن السطح الموزّع إلى أربعة أسنام وشرفة فوق طريق مِيْرا وكانت المنطقة المشمسة تقع نحو الجنوب وكان فرن سيّدي ملاصقاً للبيت ويحتوي أيضاً على حجرتين وخلفه إسطبل مطيات الزوار، الذي كنت من يعتني به، سواء ما يتعلّق منه بالسفاد أو بتسريج الأفراس والخيل. كان سيّدي يستقبل ضيوفه في غرفة الفرن الكبرى، جالساً على كرسيّ كبير من القطيفة الخضراء وهو يقرأ على المقرأ كتبَ التاريخ. في القفص الزجاجي كان يصفر الديوث ومن قارورة بلسم فييرابراس يتقطر المشروب الروحيّ الأحمر الفوّاح من قصبة شَمْشاد مونترّوسو الذهبية في كأس الفضة.

كنتُ وأنا بجانب المِقرأ يتسع، والشمعدان في يدي، تشتعل فيه شمعة من مناحل بِلفيس، مشدوداً إلى إصبع دون مرِلْين التي كانت تمضي على صفحات الكتب السريّة، سطراً فسطراً وهو يُهَجي معجزات العالم.

كان القط ثِريس، الأبيض والأعمى، يأتي ليستلقي عند قدميه.

قاشعات الشمس وقاشعات الظلام

كنتُ تحت ظلّ شجرة التين الرومانيـة، أنحت بسكين عصفوراً في رأس غصن بتولا لمقبض عكّاز -كنتُ أُحْسِنُ جيّداً شغلَ العصافير بأجنحتها المطبقة ورؤوسها المائلة- حين سمعتُ تلكَ الجلبةَ وكانوا أربعة رجال قادمين على جيادهم وكان الأخير يجرُّ خلفَهُ بغلاً محمّلاً بالأمتعة، كانوا يرتدون جميعاً الملابسَ ذاتها ويعتمرون قبعاتٍ حمراءَ كبيرةً ويرتدون حللاً صفراءَ شبيهة بحلل الرهبان في القدّاس ونصف طماقات مقوّرة وعلى رقابهم وفي الهواء أدثرة قصيرة حمراء مثل القبعات. كانت مشاهدةُ هذا الجمعِ يصعدُ الطلعةَ حتى الباب ممتعةً. ركضتُ أبحثُ عن القلنسوةِ الجديدة، التي كنتُ أُعلّقُها دائماً إلى دعامة الفرن، لأنّني أُمِرْتُ بأنّ أخرج بها إلى الباب، عندما يكون هناك زيارات، كي أستطيع رفعها احتراماً. وكنتُ في هذا حسنَ التربية تماماً وكان الدرسُ أن أفتح البوّابة باليد اليسرى بينما أرفعُ القبّعةَ باليد اليمنى وأمدَّ ذراعي إلى الخلف قليلاً، خافضاً رأسي قيدَ أنملة. علّمتني هذا التبجيل مولاتي دونيا خينبْرا. إذن فتحت لأولئك الخيالة وحيّيتهم، رفع الذي في المقدّمة وكان بديناً وأحمرَ، القبعةَ كي يسمح برؤية تلك الخصلة من الزغب المجعد جداً التي تسقط على جبينه، سألني عن دون مرِلْين فقلت له إنّه يتناول وجبةَ

الساعة الحادية عشرة الخفيفة، فأخبرني أنّه قادم من باريس لأمرٍ عظيم. تركتُهم مترجّلين ورحتُ أجري صائحاً لمولاي، الذي كان كعادته يتناول وجبةَ بيضٍ مقليّ ونبيذاً أحمر فاتحاً. ستطلّ السيّدة مرْثلينا وترى أنّ الفتى الذي كان يجرّ بغلَ الأمتعة وسيماً فقد خرجت لتلقاني في الممرّ كي تهمس لي:

- إنّهم من أهل كنيسة، لا يحملون سيوفاً.

كان مولاي متأنّياً جداً في تناولِ طعامه في غرفة الطعام ونظيفاً جداً، يغسلُ يدَيْه باستمرار عند جلوسه إلى المائدة وعند نهوضه عنها. قام بكلٍّ ما اعتاد القيامَ به دون عَجلة وتمضمض بآخر جرعة من النبيذ الأحمر الفاتح، طوى المنديلَ وعقده عقدةَ أذنَيّ الأرنب تلك التي اعتاد عملَها، لبس قفّازيه واعتمر قبّعةً ذات شُرّابة، وذهبنا إلى هناك لنُسَلّم على الغرباء وهو يستندُ بيده اليمنى على كتفي كما لو في موكبٍ.

انحنى الأربعةُ انحناءةَ احترامٍ للسيّد مرْلين، رافعين قبّعاتهم، وتكلّم البدينُ ذو الخصلة بسرعة بلغته، كان دون مرْلين مشدوداً جداً. رفع سيّدي ومولاي ثلاثَ أو أربعَ مرّاتٍ يدَهُ إلى قبّعته في أثناء كلام الغريب، كما يفعلون حين يقول أحدٌ: "ربّنا الله" أو " يا قديسة، يا مريم العذراء". ردّ عليه دون مرْلين بلغته أيضاً وبكلمات قليلة، وأمر بأخذ المسافرين، إلى قاعة الشرف، باستثناء غلام البغلة، الذي ساعدني على إدخال الجياد إلى الإسطبل وإعطائها شيئاً تأكله. أنزلنا معاً الأمتعةَ، التي كانت خفيفةً وأكبرَ حجماً من وزنها، عن البغلة. أشرتُ إليه بأن يذهب هو أيضاً إلى القاعة وأنّني سأبقى لأحرس الأمتعة، لكنّه قال لي بلغتنا، مبتسماً، وكان حقيقةً فتى وسيماً وفي وسامته فرحٌ وكان مهذّباً جداً في سلوكه:

- لا أستطيع أن أتركَكَ لتحرس هذه الملابس، يا صديقي، فهذا عملي وقد أُمِرْتُ ألاّ أبتعد عنها قيدَ إبرةٍ راهبة. جئنا من باريس على أربع مراحل، ونحن من أتباع مطران هذه المدينة وما أُريده منك الآنَ هو كأسٌ من الماء العذب.

- ذهبتُ في طلبهِ إلى البئر القديم، وكان كالثلج فشربه بتلذُّذٍ وتؤدة.

- عَرَفتُ أنّكم من أهل الكنيسة -قلتُ له عندما توقَّف عن الشرب وأضفتُ أنّ خادمةً مُسِنَّةً في البيت عَرَفت ذلك لأنّهم لم يأتوا معهم بسيوف.

- خادمَتكم العجوز هذه أصابت في شيءٍ ولم تُصِبْ في كلّ شيء.

ورفع الباريسيُّ الحلّةَ وأراني مسدَّسَين فاخرَين على خصره، أخمصاهما من الفضّة المشغولة.

- عندما تذهبُ في الطرق -قال- وتحمل معكَ شيئاً بأهمّيةِ الذي جئنا به، لا يمكنك أن تمضي على السجيّة، خاصّة في هذه الأزمنة.

كنّا في هذه الأحاديث حين خرج دون مِرلْين من بابِ الفرنِ وأمرَ بأن يحملوا الأمتعةَ له، وهنا ذهبنا أنا والغلام فحملناها ووضعناها حيث قال لنا؛ أي على الطاولة الكبيرة. فاجأني أنّه أشعلَ كلَّ الشمعدانات وأنّه نشر السترة القصيرة الملساء على كتفيه. كان الغرباء الثلاثة - يتوسّطهم ذو الخصلةِ - جالسين على المقعد بجانب النافذةِ فبدا المشهدُ مثل قدّاس إنشاد. وما إن فُتِحت الصررُ التي جاءت حسنةَ التغليف ومشدودةً بسبع حبال، حتى ظهرت ثلاثُ مظلاتٍ كبيرة، واحدةٌ بيضاء وثانيةٌ صفراء وثالثةٌ قرمزيّة، وراح دون مِرلْين يُقبِّل مقابضَها، واحداً

فواحداً وكان المقبضُ الأبيض من الأبنوس والأصفرُ من الفضّة والقرمزيُّ من الذهب.

- إنّها شماسٍ جميلة -قال مولاي- وربّما لا يملك بابا روما شماسٍ بشفافيّتها. ما يطلبه مطرانكم سهلٌ وسأقوم به بلمح البصر. الشمسية الصفراء كما تعرفون تُسمى "اطلعي-يا-شمس" وعند فتحها في عيد سيّدتنا في آب يصبحُ الصباح على الموكب مشمساً، حتى ولو أمطرت. الصفراء، التي تُسمى "العِجائب"، هي شمسية سرّية جداً ولا تستعمل إلاّ في "عيد العنصرة"، حين يقف مطرانكم في ظلّها فإنّه يتكلّمُ ويفهمُ كلَّ اللغات، ويمكن أن يعترف تحتها عالَمٌ بكامله، ويسمعه مطرانكم. أمّا القرمزية، فتُفيدُ للسفر ليلاً، من يمضي تحتها ويفتحها في ليلةٍ مُدلهمَّةٍ يرى كما في النهار. وأفضل من شمسية يجب أن نسميها قاشعة الظلمات، واسمها "زُهرة" ومرّة أخرى حين كانت هذه مُلْكاً لدون لانثاروت دِل لاغو، أصلحتُ فيها قضيبين أفلتا، في الإصلاح الأوّل لم تُعطِ فضائلها وبدل أن نرى كما في النهار، لم نر شيئاً، ولا حتى الأنوار المشتعلة في الليل. أسرارُ هذهِ الشماسي وقاشعاتِ الظلام كلُّها موجودة في قضبانها.

بينما كنتُ أقدّم للزوارِ بعضَ النبيذِ والخنزير المُقدَّد، عمل مولاي، كما لو كان صانع مظلاّت من أرونسٍ وأصلحها برقّة عين، كان قضيب واحدةٍ منها، بحسب قوله، مُرْتخياً والأخرى فالتاً. فتحها وأغلقها، وهو ينطقُ لا أدري بأيّة ابتهالات وابتسم وقال لِذي الخصلة بسطوة كبيرة.

- قُلْ لمطرانك، يا مسيو كاستِل، إنّني لا أقبضُ شيئاً مقابلَ إصلاحها، لكن عليه ألا ينسى وهو يفتح الشمسيةَ الصفراءَ أن يضع في

كرّاس اللغة السحرية في عيد العنصرة القادم وبخاصّة ما يتعلّق منها بأسماء المعادن والجواهر الرائعة، لأنّني أريد أن أنتهي من قراءة كتاب "العلوم السريّة"، الذي أخبّئه هنا، والذي يحتوي على جميع أحاديث الكلدانيين. وقُل له أيضاً ألاّ يستنفدَ فضيلةَ "الزهرة" في البحث عن كنوزٍ في الكهوف والخرائب وأنّ قاشعة الظلام لم تُصْنع لهذه الغاية، بل لمتابعة طريق عِمواس وآثارِ ربّنا، المسيح، ليلاً.

نهض السيّد كاستِل وقام بحركةِ تبجيل ووضّبوا من جديدٍ أمتعتَهم وتهيّؤوا بمساعدتي للرحيل والقبّعة في يدي حتى خرجوا من البوابة وكان مولاي في باب الفرن، لم يرفع لهم القبّعة. لوّحَ لي الغلامُ، الذي كان يجرّ البغلة، بيده مودِّعاً مرّتين، حين رآني أقفز إلى التينة كي أرى الجماعة تهبط النزلةَ.

- اسمه ياسمين -أخبرتني ليلاً السيّدة مَرْثلينا. بالتأكيد لو أردتُ لعاد، فهو لم يرفع بصرَهُ عنّي وأنا أعطيه كأسَ الماء.

طريق انزعْ -و-ضعْ

- لهذا الذي ينام هناك، متعباً من رحلة طويلة عبر طريق الشرق، الذي يكاد يكون محض غبار وتسقط الشمس فوقه عمودية، يعمل مع حاكم القسطنطينية ما تعمله أنت في هذا البيت، وهكذا تستطيع أن تُخاطبه بـ أنت عندما يستيقظ ويستطيع أن يعلّمك شيئاً من آداب السلوك الدارجة هناك. أيضاً أن تترك لحيتك تطول، وصدقاً إذا ما كانت بسواد وتجعيد لحيته، ستلائمك جيّداً.

كان مولاي يقول لي هذا ليسخر منّي، فأنا كنتُ وقتذاك في الثانية عشرة من عمري، وعلى الرغم من أنّني كنتُ فارع الطول إلاّ أنّه كان لي وجهُ طفل مستدير وزغب الشارب لم يرسم ظلاً بعد. احمررتُ خجلاً وكنتُ أحمرّ في ذلك العمر لأدنى سبب. أشعل السيّد مرْلِين موقد الفتيل النحاسيّ وشرع يغلي ماء اليَبْروح (تُفاح الجن)، معروف أنّ هذه النبتة كي تُعطي كلّ طاقتها تؤخذ في البريّة من تحت المشانق التي ينفّذ عليها الملك عدالته. آخر اليربوحات جاء بها خوسهْ دل كايرو من موندونييدو، حين شنقوا لوخيلد، الذي قتل قسّ سانتا كروث مُدخلاً بعَصاً الخرقَ في فمه.

-أسوأ ما يمكن أن يحدث لإمبراطور حين يصبح عجوزاً هو أن يعشق طفلة -تابع مولاي بينما هو ينتظر أن يغلي ذلك المرق-. هذا

الإمبراطور، الموجود الآن يحكم لأنّ حاكماً آخر كان موجوداً وتبنّاهُ لأنّه لم يُنجب أولاداً ذكوراً. كان عنده، وهذا صحيح، ابنة ظريفة جداً زوّجها لابنه بالتبنّي. هذا الحاكم في أيّامنا هذه معتاد جداً على الحروب، نظراً لأنّه رجلٌ أمضى أكثر أيّامِ حياتهِ في الجيش أو على الحدود، وهو ما جعله قاسي القلب. حدث أن ثار عليه في أحد ثغور سيادته بعض الأمراء القدماء، المعروفون بالغزنيّين، وهم كفار، شديدو القسوة، سيوفهم عظيمة وخيولهم سريعة، عندهم برج يشتغلون فيه بخيوط ملوّنةٍ شجرةَ النجوم التي يقرؤون فيها الفأل على سجادات هائلة. رأوا أنّ وقت مرور الزُّهرة على بعد ذراعين من الكلبين الأصغر والأكبر هو وقت الشروع بتوسيع مقاطعتهم. وقعتْ حربٌ والإمبراطور ميكايلو وصل إلى مشارف غزنة فأحرق النخيلَ وردم الآبارَ إلاّ واحداً تركه للحجّاج، الذين يذهبون إلى القدس وأرسل رسولاً إلى الغزنيّين يمنحهم مهلة ساعات كي يطيحوا بأبواب مدينتهم. استمع الغزنيّون لكلام الرسول دون أن ينبسوا ببنت شفة، وقد حكوا لي أنّ منظرَ الأمراء السبعة في شرفات بوابة آسيا بسيوفهم المسلولة، بلحاهم السوداء والهجينة وأدثرتهم البيضاء الملطخة بالدم، يحمل كلّ واحد منهم نسره على واقية اليد اليسرى وقد وضع له الغماء. اجتمعوا حول صلاء. سادة غزنة وبينما كانوا يتبادلون النصائح، قال واحد منهم وكان رجلاً حديديّاً بقدر ما هو رجل قلم: إنّ باستطاعته أن ينفّذ حيلة من قصّة كان قد قرأها وتدور عن ناس يونانيين وهو أن يُرسل إلى السيّد ميكايلوس أجمل غادة ليهيم بها، الأمر الذي يبدو سهلاً، نظراً لأنّ الإمبراطور عجوز لم يعشق ولم يُرافِق لسنوات طويلة غير السلاح. لم يكن يعرف ما هو سرير الريش وبقي دائماً وفيّا

للإمبراطورة تيودورا، التي صارت عجوزاً ومشلولة في كرسيّ في منطقة مشمسة تسمع موسيقى كنسية. اختار الغزنيّون غادة كالوردة من سلالة ملكية. أنا أعرف كم هي جميلة لأنّني أتعامل مع الرسام الذي صوّرها عندما كنتُ أدرس الموسيقى في الإسكندرية، ولا أدري ما الذي هو أكثر سحراً فيها، هل هما عيناها الواسعتان والخضراوان، أم قرفةُ البشرة، كلامها الهادئ يخرج من ذلك الفم الصغير أم فتنة يديها على الكمان...

- ثدياها خوختان ملكيتان. خصرُها يُمكن لساقِ وردةٍ أن يحيط به. ذراعاها ناعمتان حين ترفعهما لتُغنّي وساقاها تطير بهما حين ترقص. كلُّها كأسُ عطرٍ سرّي وخاصّة الآن والجيش العظيم ضائع في الرمال والإمبراطور كما لو أنّه ثمل في خيمته الحمراء، ما من جنديّ لا يقول إنّها من اللطفِ والرقّةِ والعذوبةِ ما يجعلها تستَحقُّ أن يموتَ المرءُ لأجلِها.

- هذا ما قاله وصيفُ الإمبراطور، الذي استيقظ بينما كان مولاي يحكي وينهض من القيلولة شاداً زناره، الذي كان يعلّق إليه خنجراً، غمدُهُ من فضّةٍ مشغولة. رفع السيّد مِرلْين ماء اليبروح وأغلق موقد الفتيل النحاسي وقال للوصيف وهو يجلس في كرسيّه المخملي:

- من المناسب أن تتابع الآن، يا سيّد ليونيس، قصّتَك.

داعب الوصيف ليونيس لحيته وجاء ليجلس بجانبي، على المقعد قرب النافذة. كان يدخل شعاع شمس ذهبيّ انعكس على أبازيم حذاء السيّد مِرلْين.

- وصلت الغادة كاليلا، كان هذا هو اسمها وتصرّح بأنّها "العسل الذي يُراق"؛ أقول وصلت الغادة كاليلا إلى القصر الملكي البيزنطي، معلنة من خلال نفخ البوق أنها رسول السادة أمراء غزنة، الذين هم سبعة من بطن واحد، كما يوثّقون عند الكتاب العموميين وكما يرى طبيبٌ قديم يسمونه السيّد أبيثينا (ابن سينا). جاءت لا ترتدي غير قطعة من حرير، مسرّحة الشعر، لا تحمل من الجواهر غير جلجل ذهبي في الفخذ الأيسر. صعقتْ كلّ الجيش، الذي بما أنّه من المسيحيين اليونانيين لم يرَ قط امرأة عارية تحت شمس الصباح. ركعت الغادة كاليلا ثلاثَ مراتٍ قبل أن تصل إلى الحاكم ميكايلوس، الذي كان يحمي نفسه بالدرع الذي يسمونه درع أبي الهول، لأنّ فيه أبا هول كبير، كان يرفع السيف البرّاق الذي ورثه ملوك القسطنطينية من القديس بولس بيده اليمنى العارية مثل وعاء القربان بيد الربّ المقدّس. الغادة كاليلا، الراكعة عند قدمَيّ الإمبراطور، قبّلت المهمازَ واليدَ التي تحمل السيفَ وراحت تُكَلِّمه باليونانية، قائلة كيف أنّها تحمل معها تقارير سرّية من غزنة وكيف أنّها لا تريد أن تُحرقَ المدينةُ، التي تملك فيها برج حمام وحديقة ورد وأخاً صغيراً أصيب بحمى مفاجئة، وتستطيع أن تقول للإمبراطور كيف أنّه من السهل احتلال غزنة من دون إراقة مزيد من الدماء. ثمّ إنّها ستموتُ كلَّ ليلةٍ من الخوف وهي تتذكّر الأمراءَ التوائم السبعةَ، الذين يريدونها جميعاً زوجةً، وإنّهم كيلا يختلفوا قرّروا أن يتقاسموها، كلّ في أثناء قمره، إضافة إلى استراحةٍ في المسبح مرّةً واحدة بعد كلّ سبعة أقمار. قالت هذا بيونانية عذبة ودعةٍ والإمبراطور لا يرفع عنها عيناً وعندما انتهت سلّم دون ميكايلوس السيفَ المُقدّسَ للإستراتيجي الأكبر، وضع

يدَه الممسوحة على ذلك الرأس الصغير والمحزون وقال صائحاً كي يسمعه الجميع: إن الغادة كاليلا محميّة بذراعه الجبارة. عزفت موسيقى وسمعت هتافات يعيش ودخل الإمبراطور إلى خيمته مع الغادة كاليلا. وما كان ليدخل أبداً!

مسح السيّد ليونيس دمعة بقبّعته وتابعَ بهدوءٍ وسكينة أكبر، كما لو أنّه يكلّم نفسه:

- ومن هو الذي لن يدخل، قَدَرٌ حزينٌ اتسع له في ذلك الكأس الجميل والعذب! بقيت الغادة كاليلا يومين وليلتين مع الإمبراطور في الخيمة، تحكي له تقارير غزنةَ السرّية وعن باب المدينة الزائف، الذي يقولون إنّه في حيّ اليهود وأن أفضل ساعة للهجوم هي ساعة منع التجوال. تلك كانت شائعات تجري. ومرّت المهلةُ المعطاة لغزنة المتمرّدة ومرّت أيّامٌ أخرى والإمبراطور يخرج مع الغادة كاليلا على الجواد يقمصُ حول المدينة، يتأمّل الأبراجَ العاليةَ، وكان الناس قد راحوا يقولون إنّ الغادة كاليلا خرّبت فراش دون ميكايلوس وإنّ مداعبات وحرارة تلك الزهرة قد أنستْ سيّدَنا الملك غزنةَ والأمراءَ السبعة التوائم والحربَ والسيفَ. وذات صباح، حين راحت الشمس تبزغُ حمراءَ فوق الروابي، حيث تعلو أشجار الدراق والبرتقال، نُفخ في الأبواقِ وقُرِعت الطبول وفُكّك المعسكر وبدأنا مسيرة طويلة وخلّفنا وراءنا في يومين الحقولَ والمستنقعات ودخلنا الصحراءَ وشربنا الماء من الآبار. كانوا يقولون لنا إنّنا ذاهبون لنحتلّ فارفيستان، حيث يُخبّئُ الغزنيّون كنوزَهم وإنّ الغادة كاليلا قد أطلعت الإمبراطور على كتاب ثيريانيّو الذي يتحدّث عن جبال الذهب تلك وكانت تُشَاهد أنوارُ واحات فارفيستان واضحة في الليل حين خيّمنا على الرمل. كم ليلة لن نراها! كم نهاراً لن نتأمل فوق

شريطِ نورِ الفجرِ أبراجَ المدن الغنيّة البعيدة. لكن كلّ شيء بدا مثل خديعةَ تتم بمرآة، والآن يمضي الجيشُ العظيم تائهاً، ظامئاً وجائعاً بين تلك الرمال. وحده الحاكم كان سعيداً لأنّ ذراعي الغادة كاليلا تُطوّقان عنقه ولأنّ لديه تلكما الشفتين الحمراوين والسهلتين يُطفئ بهما ظمأه.
وحدث أن الغادة كاليلا أرادت أن تُرسِل للأمراء السبعة، الذين كانت تخدمهم بسريّة تامّة، رسالةً تخبرهم فيها أنّه ما إن يحلّ الصيفُ حتى يكون عليهم أن يخرجوا إلى مروجِ النهر ويُعملوا هناك سيوفَهم ورماحهم في كلّ ما بقي من زهرة عسكر البيزنطيين، وكرّمتني بالذهب وبوعد أن أعانقها كما يحلو لي حين أعود، إذا ما قمت بنقل الرسالة جيّداً وأعطتني علامات الطريق في صندوق فضّة صغير مع بوصلة وحين أصل إلى حيث يوجد ثلاث آبارِ مياهٍ حارّة آخذ وجهة ريح البحر فأصل إلى غزنة في أربعة أيامٍ وأنا مرتاح تماماً. وكان أن وافقتُ على كلّ شيءٍ وتفاهمت مع القائد العسكري كريستوفوروس، الذي قال لي إنه وبدل أن أتخذ وجهةَ الريح البحرية عليَّ أن أتخذ وجهة الريح الشرقية وأنزل في طرابلس التابعة لأنطاكيا، ومن هناك أتابعُ في سفينة ملكية وأنزل في مرسيليا، ثمّ أتابع في الطريق الفرنسي وأنزل في القسطنطينية، ومن هناك إلى ميراندا في يوم واحد، وإن السيّد مرْلين، الذي هو صديق حميم له، سيعيرني ذلك الطريق الذي جاء به من بريطانيا ملفوفاً على أسطوانة حديدية ويُسمى طريق كيتايون (انزعْ وضعْ)، بحيث إنّني ما إن أستقرّ على طريق حلب في سورية، حتى يمضي هذا، مثل سربٍ من سنونو يطيرُ نحو الجنوب في الخريف، إلى أبناء القصر الشجعان، والخيّالة الثقيلة ورماة رماح الدثار الأحمر، ورماة الأقواس الذين يحملون الصليب الأحمر على صدورهم الذين يموتون، كي يعودوا لأجله إلى

القسطنطينية ليعيدوا تشكيل الإمبراطورية وينزعوا من جسد دون ميكايلوس خُدَعَ ذلك الحبّ الغامض. سيّدي، دون مرْلين هذا، حفظهُ اللهُ وسان جورج، هو الذي أطيعُ، ويتمزّق قلبي وأنا أتذكّر تلكَ الرمال الحارّة، حالاتِ الظمأ الطويلة، ذلك التيهَ اللانهائيّ، وتلك الغادة التي وعدتني بعناق.

- بودّي، يا سيّدي ليونيس، أن أُعيركم الطريق، لكن ولأنّه على أسطوانةٍ حديدية فقد صدئ وهو الآن لا ينفتح إلاّ لمسافة أربعة أو خمسة فراسخ، وصار ضيّقاً جداًّ ذلك أنّه تبلّل عند المرور من غاليثيا إلى أفالون، حين ذهبتُ إلى عرسِ حفيد دون أماديس. وقد انكمش، قماش يكشٌّ، فلم يعد من الممكن أَن يسير عليه الناسُ إلا واحداً فواحداً. هذا الدواء لا يصلُحُ، لكنّني سأعطيك خيطاً عليك أن تربطه إلى الشحّاذ الموجود في حلب بجانب كنيسة الثالوث المقدّس وترمي الكبّة على الأرض وأنت تصيح بها: "إلى الأمام، إلى الأمام" وتتبعها وستصل إلى حيث أتباعك خلال يومين وستعودون سالمين غانمين عبر مضايق الصحراء. أمّا فيما يتعلّق بالغادة كاليلا، فابحث بين الحرس الملكي عن رامي قوس يكون أحمرَ العين وبالتسديد بها وحدها، سيضع سهماً في قلبها.

- رامي القوس هذا موجود، إنّه أميرُ طيبة، حفيد ملك مشهور جداًّ كانوا يسمونه دون أوديب.

قَبّلَ السيد ليونيس يدَ مولايَ، أخذ الكبّةَ التي جاءت في صندوق من حلوى أستورغا ملفوفةً جيداً في منديل حرير أخضر خابّاً على كميته السريع على طريق بِلْفيس وخرج أستورغا على الفور. لم أستطع قط أن أعرف ما إذا كان قد وصل في الوقت المناسب، لكن من أحتفظ عنها بذكريات أكثر هي الغادة كاليلا، التي تأتيني أحياناً في أحلامي وتدخل فيها بسهولةِ دخول الخاتم في الإصبع.

الأميرة التي كانت تريد الزواج

كان ذلك يوم وقفةِ عيد سان خوان. جاء القزم من القلعة على بغلته، ذلك أنّه كان كثيراً على ذلك الرجل الصغير أن يأتي على ظهر بغلة سيسترية ذات حمولة كبيرة وأن يمضي مرحاً ومتمايلاً مثل امرأةٍ في حملها الأول. أقولُ جاء القزمُ حاملاً رسالةً مختومة بخاتمٍ معلق بشريط أخضر لمولاي مِرلْين وعندما كان يأتي قزم الكونتات إلى ميراندا كان يصعد دائماً ليمثّل مسرحية لدونيا خينبْرا، ويحدّثها عن الكونتات القزمات، والكلب الدمية الذي كانت تملكه السيدة الكونتيسة، وعلّمه السيّد مرلْين أن يصفر موسيقى صباحية كي يتظارف. كذلك كانوا يقولون إنّ القزم كان لوطياً كبيراً ومن هواة الموضة في باريس والشرائط التي كانت تأتي للآنسات من البندقية والعطر الجديد المُسمّى: أغْوا فرانتسبّانا" ورقص الضمّ والأعراس التي كانت تُقام بعظمة. كانت دونيا خينبْرا تقدّم للقزمَ الحلوى، وكان هذا، إذا لم يكن على عجلة من أمره، يغنّي أغنية هافانية يعرفها وتُعجب السيّدة جداً. أكثر ما كان يُزعجني في القزم هو ذلك الخيلاء الذي كان يتعامل به مع من هم أدنى درجة، كما لو أنّه لم يكن وصيفاً مأجوراً، بل وكان عليّ أن أمسك له البغلة حين يمتطيها. جاء ذات مرّة، وكان الوقتُ صيفاً، معتمراً قبّعةَ قَشّ جميلة

جداً، فعلاً فهي مزيّنة بأربةٍ من تول وردي، واضطررت لأن أضعها له بنفسي، كما يوضع التاجُ على رأس أسقف. ثمّ إنّه كان عليّ أن أوزّع له الأربة جيّداً لأنّ أطرافها كانت تصل حتى خصره. جاء القزم بالرسالة، زار دونيا خينِبْرا وعاد إلى القلعة على ظهر بغلته المغرورة مثله. بقي مولاي قلقاً من أخبار الرسالة، فأرسل في طلب مَرْثِلينا، وقال لها أن تُحَضّر في قاعة الشرفة سريراً بأفضل البياضات.

- يبدو لي من كلّ هذا الاهتمام -قالت لي مَرْثِلينا- أننا ننتظر زيارة مركيزة، أو ربّما أميرة أيرلندا، التي تقول الأوراق عنها إنّها في كلّ يوم تفقد نعمة البصر أكثر.

كما يمكن أن تكون حفيدة نائب أسقف ترورو، التي راحت يدها تصير من فضّة، التي كونها ودودة جداً قد تفرح قلبي بقبلة مجانية.

حدث أن حدثت الزيارة بينما كنتُ مرتدياً سترة العمل ومعتمراً غطاء الرأس الجديد المراش بريش تَدرُجة في قرنها ومنتعلاً حذاء نظيفاً، فقد كنتُ قادماً من كنيسة كينتاس حيث حملت للسيّد القسّ تروتة هديةً صادها خوسهْ دِل كايرو في طواحين بونتيغو القديمة. قرعوا الباب بقوّة، خرجت من الفرن راكضاً حيث كنتُ أقدم عصرونيةً من الذباب للديوث وذهبت لأفتح الباب فوجدتُ نفسي أمام فارسٍ، مسربلٍ بالسواد، يرتدي سترة طويلة وقبعة عالية وفي عنقه سلسلة ذهبية يمسك بجوادٍ صِنابيٍّ، تمتطيه سيِّدةٌ يُغطّي وجهَها خمارٌ أبيضُ سميك، هي أيضا كانت مسربلة بالسواد باستثناء القفازين الأبيضين مثل الخِمار، يُزين كلّ واحدٍ منهما قرنفلة حمراء مطرّزة. كان الليل قد أرخى سدوله فلم أستطِع أن أرى وجهَ تلك السيّدة، التي كانت أطول حسناء رأيتها في حياتي.

- مولاك ينتظرنا -قالت لي بصوتٍ جافّ وتسلّطٍ كبير.

رفعت القبّعة، قمت بانحناءة احترام وحين دخلا إلى الفناء كان السيّدُ مِرْلِين ودونيا خينِبْرا في الباب وخوسهْ دِل كايرو إلى جانبهما يرفع الفانوسَ الفضيّ في يده على مستوى رأسه، على الرغم من أنّنا لا نستطيع أن نقول إنّ الليل كان قد حلَّ فمساءاتُ الصيف في ميراندا طويلة جداً. تبادل الفارسُ ودون مِرْلِين السلامَ وعانقت السيّدةُ، صاحبةُ الخمار، دونيا خينِبْرا، وقبّل مولاي قفّازَ المجهولة. كما قبّل الفارسُ قفّاز مولاتي. صعد الأربعة، يتقدّمُهم خوسهْ دِل كايرو بفانوسه، إلى القاعة، بينما رحتُ أُدخل الجواد إلى الإسطبل وأنا أتصبّب عرقاً وأتضور جوعاً وجهداً في فمي. كنتُ لا أفعل شيئاً آخر غير أنّني أخترع صورةً تشبهُ السيّدةَ المسربلة بالحداد، التي اقتحمت علينا أبوابنا، فتبقى هي الأجمل. لكن الحظّ لم يُحالفني برؤيتها في ذلك اليوم، فقد استدعاني دون مِرْلِين وأمرني أن أبقى في البوّابة، إذ سيأتي خادمٌ بحقيبةٍ وقفصٍ من خيزران وعليّ أن أصعد بالحقيبة إلى صالة الشرفة وأن أضعَ القفصَ في غرفة الفرن وأصرفَ الخادم، الذي كان سينزل في قلعة بِلفيس.

- بقيتُ في البوّابة الكبيرة إلى ما بعد العاشرة ليلاً، وصل الخادمُ أخيراً ومعه الحقيبة والقفص، حدثَ أنّني أعرفه من شواربه الشقراء منذ ذهبتُ ذات مرّة إلى ميراندا.. قلتُ له ذلك، فنصحني بسرّية تامّة أن أخرس، لأنّ ذلك كان جزءاً من قصّة قديمة ومن المناسب ألاّ يعرف أحدٌ أنّه زارَ ذاتَ مرّةٍ البلد. خرستُ، لكن إذا جاءت المناسبة سأنبّه مولاي إلى ذلك. صعدتُ بالحقيبةِ إلى قاعة الشرفة. توقّفت هنيهة في الممرّ لأسمع ما كان يُقال في القاعة، فلم أسمع غير صوت مولاتي دونيا خينِبْرا،

تحكي قصّةً، سبق وسمعتها مرّات كثيرة، عن دون بارسيفال. وضعتُ القفص في حجرة الاحترام، كما أمرني مولاي وكان قفصاً من الخيزران المصبوغ بالأزرق والأبيض متقنَ الصنع تماماً، يكاد يتسع لي وفي جانبٍ منه وسادة من القطيفة. تناولتُ عشائي في المطبخ مع السيّدة مَرْثِلينا والخادمات، اللواتي كان أيضاً يأكلهنّ الفضول ويراهنَّ على ما إذا كانت السيِّدة ذات الخمار شابةً أم عجوزاً.

- لها صوت طفلة -قالت السيّدة مَرْثِلينا- ومشية حسنة جداًّ.

ذهبتُ إلى حجرتي وأنا أمضغ حبّة كستناء، لم أكن نعساً، فرحتُ أعدّ حمامات إلى أن غافلني النعاس. لم يمضِ على نومي إلاّ قليل حين جاء مولاي ليستدعيني بصوت منخفض جداًّ ويقول لي أن أنزل إلى الفرن، فهو يحتاجني لأمرٍ ضروريّ. نزلتُ والقبقابُ في يدي، كي لا يُشعَرَ بي وجلس دون مِرْلين بجانب القفص، الذي لم يعد فارغاً ففيه أنثى يحمور أو أيلة مسكٍ مستلقية يرتاح رأسها على الوسادة. ما كان يُذهل هما عيناها الزرقاوان ونظرةُ الحزن التي ترمقك بها. أمرني مولاي أن آتي بجرعة حليبٍ في فنجان وإذا ما كان قد تخثّر في النمليّة فهذا أفضل. جئتُ بالحليب ولقّمه دون مِرْلين لذلك الحيوان الصغير بالملعقة. مددتُ يدي من بين القضبان وداعبته فردَّ بغطيطِ امتنان، مثل الكلاب الهرمة حين تمرّ عليها بمسحةٍ من يدك. وضع مولاي بطانيةً فوق القفص وجلس على كرسيّ القطيفة الكبير ليقرأ كتاباً لم أرَهُ. في كلّ صفحة حيوانٌ مرسوم بالألوان الحيّة يفتنك النظر إليها. بقيت حاملاً الشمعدانَ أكثر من ساعة وحين أغلق الكتابَ قال لي:

- يا فِليب، عليك أن تساعدني غداً. لا تَخَفْ ولا تقُل لأحدٍ أنّك

رأيت الأيلةَ في القفص، ولا تسأل إذا لم ترها غداً حين تنزل للقيام بأعمال النظافة.

اعتقدتُ أنّ عليّ أن أخبرَ مولاي بأمرِ الخادم ذي الشوارب الشقراء، والسيّد مِرْلين سألني بجدّية كبيرة عمّا إذا كنتُ متأكّداً فأجبته بنعم بل وأكثر من ذلك كان صاحبُ الشارب يأكل الإخطبوط إلى جانبنا ويدفع بِالبِّسو وصاحبة محل بيع الإخطبوط، وهي السيّدة بِنيتا دِ ساريّا، زجرته لأنّ البِّسو كان إشبيليّاً.

- يبدو، يا غلام، أنّ هناك دائماً شيطاناً يشبه آخر في البلد. والآن اذهب إلى فراشك.

عيدُ سان خوان جميل جداً في ميراندا. هناك أشجار كرز في كلّ الجبال المفكوكة، والأبيض منه الذي كان موجوداً في بستاننا له طعم سكّر بقرفةٍ يُمَجّد الخالق. نزلتُ باكراً جداً للقيام بأعمال النظافة ولم أكن مرتاحاً لكلّ تلك الأسرار، على الرغم من أنّني معتادٌ على كثرة الزيارات الدنيوية لذلك البيت. أوّل شيء قمتُ به هو أنّني نظرتُ إلى القفص، الذي كان فارغاً، نفضتُ الوسادةَ، التي كانت ما تزال دافئة، وعليها علامة رأس الأيلة. كنستُ الغرفَ. وضعتُ العلف لحصان فارس القبّعة العالية، الروانيّ. أمسكتُ ببعض الذبابات للديوث، مسحتُ الغبارَ عن المرآة وكرسيّ القطيفة، وضعتُ شمعةً جديدةً في الشمعدان، ملأتُ علبةَ الصدف بالنشوق، التي كان مولاي يأخذُ منها، بين الحين والآخر، قليلاً برأس إصبعيه ويستنشقه بأنفه. تلك كانت حركتي اليومية، قبل الفطور، الذي كان في أيّام الكرز كرزاً وخبزَ قمحٍ. كنتُ أبصقُ النوى بشكل ممتاز، مثل بندقية قذفِ حبات الفول من المشاقة تقريباً، وكنتُ أُعَلّم مانولينيا دِ

كارلوس فعل ذلك. هكذا كان باستطاعتي أن ألمس وجهها الأحمر وشفتيها وكانت تعرف جيّداً أنّه بقدر ما كنتُ أحبّ أن أُعلّمها بصق النوى بقد ما كنتُ أحبّ أن أدغدغها. لكن في ذلك الصباح لم يكن هناك مدرسة، ناداني مولاي من الشرفة وأمرني أن أربط الكلابَ بالسلاسل في الكوخ وأن أُشعل الفرنَ بالوزّال وألاّ أتحرّك من هناك ولا حتى كي أبلّ المكنسة. كنتُ جالساً بالقرب من الفرن وأحفر حرف ف على كلّ فردة من فردتَي القبقاب حين دخل السيّد مِرْلين مع الفارِس، الذي سرعان ما عرفت أنّه يُدعى دون سيلبِسْترِ وهو المسيو عمدة مدينة فرنسية دستوريّ ، اسمها بوردو، ووصيّ السيّدة المجهولة قانونياً. قال لي هذا سيّدي مِرْلين وقدّمني للسيّد سيلبِسْترِ باسم فيليب، كما هو اسمي، وصيفه وعكازه المقدّر جداً. حيّاني دون سيلبِسْترِ رافعاً حاجبيه، كان رجلاً في غاية الجدّية، حليقاً مثل راهبٍ، يضع نظارة ذهبية، عدستاها سميكتان جداً، تظهر خلفهما أضواء ممطوطة جداً، فبدا أنّهما تحتويان في بئري العينين على سكينين بدل البؤبؤين. كان طويل القامة، سبق وقلت إنّني لم أرَ مثله.

– هذه السيّدة التي جاءت مع دون سيلْبِسْترِ، يا فيليبّ، من بيت عريق النسب في مقاطعة أكيتانيا التي تنتشر عند دخولك بوّابات فرنسا على يدك اليمنى. أرادت هذه الأميرةُ أن تتزوّج فتىً من البلد، ومن دم مختبر أيضاً، لكن حين كانوا سيحتفلون بالعرس خرجت للفتاة بقع سوداء في وجهها في البداية ثمّ رشح كثير وراحت أذناها تكبران ونبت لها شعر في كلّ جسدها وتحوّلت أخيراً إلى الأيلة التي رأيتها في قفص الخيزران وبقيت على هذه الحال تسعة أسابيع والآن هي في النهار امرأة،

باستثناء الشعر الذي يُغطّيها ووفي الليل ما زالت تتحوّل إلى أيلة، كما رأيتها ترتاح وسأقوم الآن بفكّ سحر قويّ جداً مُعتمِداً عليك؛ سبق وقلتُ لك ألاّ تخاف. دون سيلبِسْترِ سيهديك قطعَتَيْن ذهبيتين مسكوكتين في تور.

وافقته فخوراً بكلّ هذه الثقة بينما أنا ألبس قبقابي ورحت أُفكّر أنّني بقطعتين ذهبيّتين مسكوكتين في تور أستطيع أن أشتري في أكيتانيا قبّعةً بشريطة مثل قبّعة قزم بِلفيس وساعة فضّية مع مقرن ذهبي، مثل التي كانت لخوسِهْ دِل كايرو. قال دون سيلْبِسترِ إنّه سيسهر على دونيا سيمونا، إذ هكذا كانت تُدعى الآنسة المسحورة. وبقيتُ مع مولاي وقد أحكمنا إغلاق الأبواب لنقوم بفصول فك السحر. وكان أوّل ما فعله مولاي هو أنّه عجن طحينَ قمح وعمل منه كعكة تحمل في وسطها صليباً في منطقتين ثمّ شويناها ثمّ كان أنّنا ربطنا إلى فخّ ذئاب خيطاً بطول أكثر من عشرة ياردات وربط دون مرِلْين في الطرف الآخر جلجلاً من فضة رسم عليه بحبرٍ أحمر أربعة صلبان.

- عندما تراني أعملُ كلَّ هذه الصلبان في عمل سحري -قال لي مولاي- اعلمْ أنّ في الأمرِ شيطاناً.

أظنّ أنّني لم آكل في ذلك اليوم من الكسل والخوف الذي كنتُ فيه وكانت السيّدة مَرْتِلينا تريد أن تجعلني أتكلّم وأنا أصمت أو أبدل الحديث. مرّ المساء في تنظيف الفرن وإخراج الكلابِ لساعة إلى الغابة لأنّ ثعلباً جاء إلى الدجاجات وفي تصليح القبقاب بقطعة تنك وكانت العصرونية لبَّ خبزٍ بالزبدة والبيض وعند حلول الليل ذهبت كما كنتُ قد أُمِرت، لأمثلَ أمام دون مرِلْين، الذي كان يرتدي ملابس الصيد.

- السحر الذي فيه دونيا سيمونا -وضّح لي مولاي- من الأنواع التي تُعمل ليلةَ سان خوان ولا تدوم إلاّ سنة واحدة. إنّه سحر من النوع الصغير. الشيطان الذي سحرها سيعودُ هذه الليلة، المشهورة جداً في العالم، وعندي الآن كلّ شيء لصيدِه في محاولته وطرده نحو أسفل لا فراغا.

- ألا نستطيع قتله؟ -سألته متصنّعاً الشجاعة.

- الأمر سيّان، لأنّ عدد الشياطين سيبقى نفسه حتى نهاية العالم.

كانت الساعة الحادية عشرة من ليلة سان خوان عندما خرجنا أنا ومولاي، نجرّ بحبل دونيا سيمونا وقد صارت أيلة. سلك السيّد مِرلْين طريق عين كووسو دون أن ينبس بكلمة وما إن وصلنا إلى العين حتى وضع عقالاً من الجلد المضفور لدونيا سيمونا وأمرني أن أضعها في الحقل الصغير وراحت تُقبّل العشبَ بوداعة كبيرة، كما لو أنّها ترعى. كان القمر بدراً تامّاً ووهّاجاً إلى حدّ أنّه لا يكاد يسمح برؤية حبيبات النجوم وكان النبع يصدحُ بمائِه العذب، الذي ينحدر من ساقيته العالية وكان من الوداعة بحيث إنّه حمل بين يديه لافتة تقول: "أنا من بِلْفيس". دائماً هناك خفافيش في النبع وفي تلك الليلة لم تكن تطير.

بقينا على هذه الحال قرابةَ الساعة، كلانا جالس بجانب العين بينما دونيا سيمونا ترعى في الحقل. لكن بدا لي أنّ مولاي سمع شيئاً فجأة فأمرني أن أذهب وآتي بالأيلة وأن أرعاها ماسكاً بالحبل هناك بجانب أشجار تفاح الكنيسة، القريبة ففعلت وعندما وصلتُ إلى أشجار التفاح وجدتُ هناك على الأرضِ بين الأعشابِ كعكةَ خبز القمح، لكنّني لم ألمسها، كان ممنوعاً عليّ لمسها أو قولَ أيّ شيء عن حلقات فكّ

السحر. لم تكن دونيا سيمونا تهدأ، ربّما لعدم اعتيادها على العقال في رجليها كل ما كانت تفعله هو أنّها كانت تلتصقُ بي ويخفق قلبها الفزع فوق ساقي. عندها رأيتُ العمدة دون سيلْبِسْترِ يصل من بين أشجار التفاح فبدا أطول مما هو تحت ضوء القمر ومضى دون أن ينظر إليّ إلى حيث كعكة الصليب وكانت الهيئة المتناقضة التي صار إليها تُثيرُ الخوف فقد راح يُكسّر أغصان أشجار التفاح مثل مجنون ويلقي بها فوق كعكة الصليب حتى غطاها؛ فالتفت إلينا ولم يكن يضع النظارة على عينيه فاشتعلت في وجهه نظرةُ ذئب الليل. دونيا سيمونا ما عادت أيلة، صارت فتاةً مُقيّدةَ اليدين بحبل الجلد المضفور تبكي وتشدّ عليّ. لكنّ دون سيلْبِسْترِ لم يستطع أن يتقدّم خطوةً، أدخل رجله اليسرى في الفخّ وقرع على الفور الجلجلَ الفضّي وصاح مولاي باللاتينية لا أدري ماذا وركضتُ أنا ودونيا سيمونا لائذَين به، لكنّنا انزلقنا حين وصلنا إلى العين، وسقطنا في الوحل وأغشي عليّ. استيقظتُ في سريري. كان دون مِرْلين يجلس على الصندوق بجانبي ويبتسم لي.

– ذاك كان الشيطان، يا صديقي، وأنا مسرور منك. دونيا سيمونا تسير في بِلفيس متحرّرة من السحر وغداً ستتابع رحلتها إلى فرنسا يُرافقها كونت يُسمونه دون غايِفروس دِ مورمالْتان، وستتزوّج في بلدها بمن يحلو لها. يؤسفني أنّك لم ترَ دون سيلبِسْترِ بل شيطاناً يُسمّونه كرويثاس وقد صار حزمةً من قشّ مشتعل يهرب في طريق كينتاس. جميع كلاب إسْمِلٍ نبحت لأكثر من ساعة. وستعرف أنّ صاحب الشوارب ذاك الذي تعرّفت إليه في مِيْرا هو خادم الشيطان كرويثاس، وهو من اعتقل دون سيلْبِسْترِ الحقيقيّ في العلية كي يتمكّن الشيطان من سحر دونيا سيمونا

للمرّة الثانية والأخيرة، لأنّه كان مولّهاً بها. سيُبدّل كرويثاس جلدَه في الجحيم وصاحبُ الشوارب الذي يسمونه تاديو كان خيّاطاً في طُلَيطلة حمله دون غايفِروس معه أيضاً إلى فرنسا حيث ينتظره جلاّد الملك في مدينة بّونز، وهي مدينة جميلة جداً وفيها نبيذ رائع.

وبما أنّني كنتُ صامتاً ودون مِرلْين يقرأ ذاكرتي في داخلي قال لي بصوتٍ ينطوي على ودّ كبير:

- بالنسبة لدونيا سيمونا، تركت لك سلامات كثيرة وهذا المنديل المُطرَّز ونصف أوقية ذهب وكانت تريد أن تنظّف لكَ السترة الطويلة، لكنّني قلتُ لها يجب أن نترك الطين يجفّ. مرّت بيدها على شعرك وقالت ضاحكةً: "وصل الطين حتى هنا" . والآن نمْ قليلاً حتى يُنادوك للقدّاس وعليكِ أن تعرف أنّك عُمِّدتَ هذه الليلة ثانيةً وأنّه في الثانية عشرة من ليلة سان خوان من كلّ سبع سنوات كبيسة مثل هذه كلّ ينابيع العالم تسكب لبرهة ماءً هو من ماء نهر الأردن، الذي عمّد به يوحنّا المعمداني سيّدنا الربّ.

ابتسم لي وتأمّل، قبل أن يُغادر غرفتي، سترتي الطويلة الممتلئة بالطين، والمعلّقة بجانب النافذة كي تجفّ بأسرع ما أمكن، أتذكّر أنّه قال لي بكلّ تلك الملامح الودية التي كان يُظهرها وأعرف أنّها حصيلة معرفته بقلوب الناس وأحلامهم ووحشتهم التي يحملها كلّ واحدٍ في حقيبة روحه:

- كنتَ في منتهى الأناقة للذهاب لفكّ السحر وقد عثرت على قبّعتك الجديدة في الوحل، سيكون عليك أن تضع لها ريشةً أخرى هذا الخريفَ.

حكايات الغريب

كنتُ أمضي في ذلك الصيف متظاهراً بالحزن، كعاشق لِدونيا سيمونا، التي وإن كنتُ لا أراها إلا أنّني أكتفي بأن أحلمَ بعينيها الزرقاوين وأشمّ رائحتها حين أحمل المنديلَ المطرّز، الذي تركته لي هديّةً، إلى أنفي، فلا أشتهي الأعيادَ ولا حتى عيد سان بيرناب كينتاس، المشهور جداً ولا عيد سيّدتنا في مِيرا، ولا عيد سان بارتولو د بِلْفيس. كنتُ أمضي وحيداً، شارداً إلى حدّ ما، مهملاً لأعمالي، خاصّةَ عندما كانت دونيا خينِبْرا تذهبُ إلى الحمامات الساخنة في لوغو، ترافقها مانولينيا كوصيفة، ومولاي يقرأ كتباً جديدةً أرسلوها إليه من روما، وكان المرسل أجنبيّاً يُدعى إليماس، الذي يبدو طبيعياً أن يدُعى هكذا بين قومِهِ من هم مثله من أهل السحر، منذ أن تشاجر شخص كان يُدعى إليماس (عالم) مع القديس بولس. لم يكن مسيحيّاً، كما لم يكن يذوق لحم الخنزير ولا النبيذ، لكنّهُ بالمقابل كان يُحبّ القهوة ويُدَخّن باستمرار بغليون طويل ومشغول جداً. كان مولاي يختار الكتبَ التي سيشتريها فيأتيه إليماس بها على ظهر حمارة ليونية في سلّة مُبطّنة، مضى يومان وتصادقتُ قليلاً مع الغريب، الذي كنتُ أحمل له الشوكولا مع البسكويت إلى السرير، وأخذت له الحمارة إلى إلْ فيّار كي أنعلها له

فسمّرتُ من جديد قبقابه. وأكثر ما كنت أستلطفه عند السيّد إليماس هو سرواله الأخضر، الواسع من الأعلى والضيق من الأسفل وتهذيبه في خلع حذائه حين يدخل إلى البيت.

- منذ أكثر من عشرين سنة وأنا أسافر -قال لي- بالكتب السرّية وفن الكيمياء والطلسمان والتمائم وكؤوس العنبر والنظارات الجيّدة والرخيصة. أستطيع القول إنّني جبتُ أجزاءَ العالم التسعة، بل ربّما أكثر، وميراندا هذه بعيدة، لكنّني أكنُّ لمولاك، دون مِرلين، الكثيرَ من الحبّ، لولا مولاك، لكنتُ الآن أتنزّهُ في روما، أو على وشك الوصول إلى الصين، أو هافانا حيث أملك نصف موكب.

لم يكن السيّد إليماس يذيب السكّرَ في القهوة، بل يلعقُ بالملعقة ذلك العسلَ الأسود المترسب في قاع الفنجان، بعد أن يشرب السائل.

- كما أنّني أكسبُ بعضاً من عيشي من حكاية الحكايات في الخانات، الآن بالذات لديّ قائمة بسبعٍ جاهزة تماماً، وجميعها تتضمّن جزءاً يسيراً من الحقيقة. أقول لك إنّك مهما بلغت من التلفيق في الحكاية يبقى فيها أربعة أو خمسة خيوط من الحقيقة، ربّما تحملها في داخلك دون أن تنتبه.

- هذا صحيح -قال مولاي، الذي كان يسمع حديثَنا-. تستطيع هذا المساء أن تستبق لنا موضوعَ واحدةٍ منها.

- يسرّني ذلك، يا سيّدي -أجاب الغريبُ، الذي كان يُعامل مولاي بكثير من الاحترام-، أستطيع أن أبدأ الآن إذا ما جاءني الوصيفُ، بالإذن منك، بفنجانِ قهوة آخر.

ذهبت طائراً وأتيته به، كان السيّد مِرلين جالساً في كرسيّه الهزاز تحت شجرة التين الوارفة، والغريب على الأرض على الطريقة الإسلامية، وأنا امتطيتُ الغصنَ الكبير، وبدأ إلياس حكاياته. لكنّه لعق قبل ذلك العسلَ الأسود على مهل.

حوض الحمّام والشيطان

حدث هذا، قبل سنة من الآن في "مملكة" نابولي، في مزرعة يسمونها براتو نووفو" (المرج الجديد) وهي عن طفلة للمفتش الكبير، ويظهر في هذه الحكاية أنّ العظمة الإنسانية نفسها لا تفلت من السحر الأسود. ولدت هذه السيّدة الفتية وتدعى دونيا إليونِرا، طفلاً فأخذوه ليغسلوه في ذلك الحوض الزجاجي، دشنوه في ذلك اليوم، ولم يكادوا يضعون الطفل في الماء حتى ذاب فيه كما لو أنّه كان ملحاً أو سكّراً. كل شيء في المزرعة تحوّل إلى شهقة ذهول، وما من أحد صدّق ما جرى. لكن ما جرى جرى. اضطروا لأن يُلقوا بذلك الماء في المقبرة، وأقاموا للزجاجة الكبيرة التي وضعوه فيها جنازة عظيمة رافقتها الموسيقى والترانيم المتنوعة والمفتّش الكبير ذو الدثار العظيم. وضعت الصبيّةُ مولودَها الثاني منذ خمسة عشر يوماً وبما أنّه يجب أن يُغْسَلَ من يولَدُ حديثاً فقد عادوا ووضعوا الحوضَ الزجاجيَّ، وهو عمل قديم وثمين جداً، في غرفة المولودة. كان المفتش الكبير حاضراً وكذلك مُعزِّم بالرِمو، وهو الذي ينتزع الشيطان من جسم آل بوربون في نابولي عندما يكون هناك حاجة لذلك ،ويحدث ذلك دائماً تقريباً في السنوات الكبيسة، كما كان هناك أيضاً لجنة أطبّاء الصقليتين كاملةً، وكانوا على وشك غسل الوليد

حين خطر ببال الأم أنّ على السيّد عمّها أن يُبارك الحوضَ، ولم يكد يقول السيّد المفتِّش الكبير: "باسم الآب"، حتى كان الحوض قد صار ألف شظيّة وخرجت منه رائحة كبريت كريهة وتمكّن مُعزِّم بالرِمو من الإمساك بالشيطان، الذي أرادَ أن يهربَ، من رقبته بمقبض مظلته المعقوف، لكنّه استطاع أن يملص واختفى في المدخنة. عرفوا بعدها أنّ الحوض ابتيعَ من ديرٍ مشهور جداً، ومن راهبات يُسمّين فوسّانو وأنّ رئيسات الدير كنّ يستحممن فيه في عيد الفصح وسان مارتين والراهبات في عيد القديس بطرس وأن ذلك الحوض لم يكن غير الشيطان الذي تحوّل إلى حوضٍ كي يرى وقتها السيدات الراهبات عاريات كما خُلِقن.

وليُّ عهدِ الصين

- وليّ عهدِ الصين، وهو صبيّ قصير قليلاً، كان يريد الزواج، تركه والده، بعكس العادة، يختارُ المرأة. كان وقتذاك، بالإضافة إلى أنّه قصير القامة قليلاً، متوعّكاً يرسمُ أزهاراً وعصافيرَ ويحلم في كلّ ليلة في غرفته في قصرِ الدوارات السبع بأنّه يُداعبُ حباتِ ليمون كروية. أمر وليُّ العهدِ أن ترسل له الإمبراطوريةُ كلها صوراً، مرسومة على قطع حريرٍ طويلة، لأجمل الفتيات، راحَ يقضي الصباحات والمساءات في تأمّلها. ولم يجد واحدة منها تروقُ له وبقيَ يحلمُ في الليل بأن يديه ترتاحان على سلّةٍ صغيرة من الريش، وَضَع فيها أحدُهم حَبَّتَي ليمون كرويتين... وصل بريدٌ من أقصى المقاطعات جميعها، حاملاً للأميرِ، ولي العهد سبعين صورة، وجميع المُصوَّرات كنّ فتيات صغيرات يبتسمن، مائلاتٍ الرؤوس الكريمة باستحياء. فتح المجلد الذي كانت فيه الفتيات المُصوَّراتُ كل واحدةٍ مع اسمها وشرطها منقوش على الهامش. وجد الأميرُ نفسه أمام ملاحةِ صبيةٍ رفعت له رأسَها، فتحت عيْنَيْها الخضراوين، وكانت رموشها من الطول والسواد مثل شعر الفرشاة التي يُرْسَم بها الحرف الأوّل من اسم التنين. كلاهما نظر للآخر طويلاً. وبعودة الفتاة الصغيرة إلى وضعها المرسوم على الحرير، خجلت. أمرَ وليُّ العهد ، منذ أحد عشر أسبوعاً من

الآن، أن يأتوه بها وتزوّج منها وتتم الأعراس هناك بقنديل من ورق والخطيبان ينتظران أن تنفد الشمعة وحين ينطفئ المصباح يكون العرسُ قد تمَّ. أهدى وليُّ العرش الصغيرةَ مظلّتين، عقدَ لؤلؤ، وصدفةً من فضّةٍ وعشرةَ أظفار من ذهبٍ وحين انتهت المراسم بقيا وحيدين في غرفة قصر المئة دوّارة، سأل الأميرُ الزوجةَ لماذا احمرّت خجلاً على القماش المرسوم. "المسألة -قالت الزوجة الحديثة-، هي أنّني الليمونتان الكرويتان اللتان كانت يداك تُداعبهما ليلاً". والأمير، الذي سمن في وقت قصير وزاد عدّة أرطال كانتونية، بدّلَ اسمَ زوجته بنصيحةٍ من موظّفي الإمبراطورية وكتب الجميعُ بحروفهم تلك حسنة الترتيب أن السيّدة الأميرة تُسمّى: "الليمونة التي تبتسم ليلاً".

الذئب الذي شنق نفسه

هذا حدثُ وقعَ في مملكة ليون في الشتاء الماضي على بعد تسعة فراسخ من أستورغا في غابة من السنديان تسمى غابة دونياس، وهناك كوبلات تدور في ليون وبالنثيا لكنّها لم تنتشر بعد في هذه المنطقة. وكان أن شنق ذئبٌ نفسَهُ. تقول الحكاية إنّ ذئباً عجوزاً، من تلك التي يُسمونها هناك "غارلينية" لأنّها لا تنقطع عن التجوال في المناطق والقرى ولا تخاف الإنسان وتؤذي الكلابَ كثيراً وقتلتْ جنديّاً وطفلةً كان يحملها لترعى حماراً، وكان يُهاجمُ أكثر ما يُهاجم الفتيات، خاصّة إذا ما كنّ في الدورة الشهرية، مع الاعتذار، وكان يأتي ليعوي تحت البيوت نفسها. خوري المنطقة ومعه صياد مشهور جداً يسمونه دون بليانيس، وهو ابن عمّ قمّص لوس بادوس، يشتري منّي كتباً تعالج البارود وحتى العام الماضي بعته كتاب "صناعة المفرقعات" لمؤلفه السيّد بيرينغوتشو، أعَدّا رحلة صيد من رجال مكافحة الأخوّة المقدّسة، يحملون بنادق صيد السيّد مركيز أستورغا الماراغتية ووقعوا على أثر الذئب في الجبل من خلال كلب السيّد الملك الذي يسمونه "سيغوبيا" وتبعوه ليلاً ونهاراً في الجبال الموحشة وعند الفجر راحوا ليحاصروه في غابة سنديان دونياس. كان الفضل للكلب "سغوبيا"، وللرجال الذين راحوا يبحثون عنه أيضاً. توغّل دون بليانيس في غابة السنديان ببندقيته طويلة الماسورة فكان هو

من رأى، ولم يخرج حتى الآن من ذهوله العظيم، كيف أن رجلاً عارياً كان يشنق نفسه على السنديانة ، تأكّد من الحبل حول رقبته ومن الغصن وترك نفسه يهوي. بعدها تحوّل عند ما هوى إلى ذئب، إلى ذئب الفجائع العجوز. هكذا عُرف أنَّ تلك البهيمة المرهوبة هي الرجل-الذئبُ. والقسّ، الذي كان رجلاً خَيِّراً وعطوفاً، أرسله ليُوارى الثرى، صلّى عليه صلاة أبينا الذي في السمَوات... إذ من يدري ربّما وصل في الوقت المناسب، وبينما هو يُصلّي راح الذئبُ يتحولُ إلى رجلٍ، فعرف الجميع أنّه السيّد رومالْدو نيستال، وهو صاحب دكّان في مَنْثَنَال كان محترماً، فهو لم يكن يسرق في الميزان.

- هذه -قال السيّد إليماس- هي الحكايات الثلاث الأولى، اعتدت أن أحكيها في أوّل ليلة في الفندق. طبعاً أزخرفها قليلاً، وأخرج أوصاف الناس، وأحضر فيها فلاناً، الذي كان أعرجَ، أو مُتَزَوّجاً للمرّة الثانية من امرأة صمّاء كان لديها رأس مال ولها دعوى تتعلّق ببعض الماء، أو أية ملاحظة أخرى. وأحكي عن المدن، إذا كانت كبيرة، كم ساحة وشارعاً فيها، وما إذا كان يوجد فيها أسواق جيّدة، وما هي الموضات. الحكاياتُ مثل النساءِ والطبخِ تحتاج للزخرفة. أحكي عن حياة رومالدو نيستال هذا، احتمالاً، منذ أن ذهب لخدمة الملك، كيف عشق امرأة رقيب قارعِ طبل، وكيف عثر في الشارع على أونصَتَيٍّ ذهبٍ جهّز بهما حانوته في مَنثنال.

أُعجب مولاي كثيراً بحكاياتِ إليماس، اشترى منه سبعة كتبٍ، أعطاه إكرامية وأمر بإعطائه قالبَ جبن زوادةً للطريق وتركني أتبعه مع الكلب نورِسْ حتى بِلفيس، حيث كان سيبيع للكونتيسات الصغيرات حكايةً جديدةً، كانت قراءتها دارجة في باريس، عنوانها "بول وفرجينيا"

الساعة الرملية

كنتُ ألعب برمي الأوتاد مع ابن أرنغِيْرو والأب، السيّد أنطون دِ لا أرنِغا. كان يأتي كلَّ عام في عيد القديسين إلى ميراندا ليعمل قباقيبَ ويضع لها نعالاً، يصنع في أسبوع كلَّ ما يحتاجه بيتُنا من أحذية خشبية وقباقيب في عام، والصغير، الذي كان أحدب قليلاً ويُدعى فلورِنْتينو، وجاء به ليصنع صباغاً ويصبغ به الأحذية الخشبية، كان يقضي معظم وقته خلفي، يريد مني أن أريه الحساسينَ التي كانت عندي، وألعبَ معه بالأوتاد وأحكي له حكايات، أقولُ كنتُ ألعبُ مع فلورِنتينو لعبة الأوتاد عندما دخل علينا من الأبواب دون فليتْسْ، المغني الذي كانت تكتنفه ألغازٌ كثيرة في كنيسة سانتياغو، أما بالنسبة لفضائله فكان فارساً مهذّباً جداً ومدمناً على أغواردييِنت (نوع من العرق) بورتومارين. جاء على بغلته الميِْرية بطريقته المفتوحة والمرتاحة بالركوب، طالباً من مولاي أنْ يركّب له ساعةً رمليةً كان يحملها بيده في كيس من القطيفة السوداء مربوط بشريط أحمر. أتذكّره كما لو أنّني أراه، حيويّاً وثرثاراً، معقوفَ وأحمر الأنف، رقيق الشفتين، كريم الفم، خاصّة أنّه كان طلق المحيّا، طويل الذراعين وكبير اليدين اللتين تلفتان النظر في رَجُلٍ مثله ليس قصير القامة، فهو هناك يعتبر قصير القامة.

- هذا الذي تراه هنا -قال لي السيّد مرْلين بينما كان دون فِليثسْ يُدخل البغلة في الإسطبل، ولم يترك لي أن أقوم بهذا العمل، فالبهيمة كانت تنزع للعضّ والإجفال -، وهذا الذي تراه هنا رجل ضليع في المعرفة وفي لعبة سلمنكة غاليثيا. نحن صديقان منذ سنوات طويلة وأصاب بالذهول وأنا أتذكّر الأشياء التي رأيته يتنبّأ بها، سواء عن طريق ورق اللعب أو عن طريق الطحين ويُسمّى هذا التنبّؤ الضربُ بالطحين وهو سرّيٌّ جداً، خاصّة فيما يتعلّق منه بكنوز النقود، بناسٍ ذهبوا إلى أمريكا، بحبٍّ الأرامل والموت العنيف. عن هذه الأشياء أستطيع أن أقول لك إنّه يراها كأنّها مصوّرة.

إذن وصل دون فِليثسْ ومعه ساعته الرملية وكانت قطعة مشغولة جداً بالفن الطُلَيْطلِيّ، عروتاها حيتان، كأسها من زجاج ورديّ، قوائمُها أربعةُ رؤوس ملائكةٍ صغيرة، وأعمدتُها شَبَهُ دوالٍ وافرة العناقيد وكلها متوّجة بمرآة تشبه ظفرَ الخنصر فوق أونصة الملك دون كارلوس الثالث الذهبية. التصليح الذي طلبه دون فِليثسْ هو أن المرآة بدأ يتطاير زئبقُها عندما كان يتنبّأ في سوق فيانا بحبّ فتاة لغندور هوموسو في معرض سوق بيانا دِلْ بولّو. كان تركيبها مثل السمن على العسل،فقد كانت بحاجة إلى زئبق إيطاليّ مُخَفّف، وبما أنّه غاص في العمل والنفقات، فإنّ من المناسب أن يُبدِّل رملُ الساعة. لم تكن مسألة يومين أو ثلاثة، خلال الفترة التي قضاها دون فِليثسْ بيننا وفي أثناء تناول الغداء الذي كان دائماً عصيدةَ البطاطا والشوفان بالحليب والفواكه المُجفّفة ولحماً مشوياً، صرنا صديقين. كلّ بذخه كان أبازيم فضّية، إبزيم على شريط القبّعة الأخضر، أربعة على شكل أزرار في القميص، وأربعة على القباء، اثنان

من كلّ جانب، ما أسمن ربلَتَيْه ! وفي كلّ فردة حذاء إبزيم وكنتُ أنظّفها له كلّ صباح بالملح الفاخر، لذلك كان ممتنّاً لي. كان يقضي مُعظم اليوم بالحديث مع مولاي "عن العِرافة المتنوّعة (د مانتيكا باريانتشنيوس)"، عن الشيطان الذي يسمى في الألمانية "هورنْسبيغل" الذي يُترجم بِـ "مرآة القَرْن" وكان في إشبيلية يقضي الوقت يرقص بين المتزوّجات، يحكي عن الديك الذي باض بيضة في سُريا أمام الكاتب بالعدل وعن علامات "يوم الغضب"، ومن قتل بّريم وكيف هي آلة القطار وأيضاً عن استشارة جاء بها وفيها كورالات الكاتدرائيات متداخلة، وما إذا كان من يعزفون على النايات، والكلارنيت والمزامير والفيسكورنوات، لا يستطيعون بحسب القانون الكنسي، وكان هذا قراراً اتخذه مجمع كاتدرائية توي، أن يأكلوا البازلاء والفول، الطعام الذي يُكثِّفُ النفس ويثقل على صوت الآلات. وكان دون فلِيثسْ يصعد في المساءات ليفتح البخت بورق اللعب أمام دونيا خينِبْرا، كي يعرف ما حدث لكلّ فرسان بريطانيا، ما إذا كانت دونيا غالينا ستتزوّج في بيتها، أو سيظهر طريق كافامون، كم ولداً عند حفيد دون أماديس، ما إذا كانت تُمطر أم لا في هافانا، وما إذا كانت ستحبل الجميلةُ أوتِرو أم لا من قيصر روسيا. وكان دون فلِيثسْ يستمتع في استقراء أخبار جديدة من الورق، وحين كان يصطاد واحداً تُعجب دونيا خينِبرا أو مولاي يبتسم بتواضع، ويقول كما لو لنفسه:

- خلال عام لن يرد هذا الخبر في الورق.

أيضاً فتح لي ذات ليلة بعد العشاء البختَ في الورق، أولاً كيف تقول "على هواه" بعدها "إلى المبارزة" كيف يسمون "والقماش أمامه"

الذي هو معطف الراهب وعليّ أن أقول إنّه عرفها جميعها، بل وعرف أنّني كنتُ أمضي خلف تنورات مانولِينا دِ كارلوس، وأنّني إذا ما بقيت أعمل هناك، سيكون لدينا تعميد في عيد التطهير، أي بعد ثلاث سنوات من الآن. قال بما أنّها ترسم عصا البستون بدءاً من الأعلى، لا يطلع له إلا الشاب الذهبي ويأتي على رأسه وأن الأربعة كوبًا تأتي على رأسها في طرقات السبات.

أربعة الكوبّا لوليّ العهد

والسبات للحارس،

الأوّل والمهاجم"

وأنّه كان واثقاً من أنّه سيكون غلاماً. دهشت وأنا أرى الأربعة كوبة الحمراء وتلك اللافتة التي يضعها لهم دون هِراكليو في بيتوريا والتي تقول "منطقة كتيمة". في الوقت المناسب، لأن من يعملُ يعمل وأنا بقيت أُعَلِّمُ مانولِينيا بصقَ نوى الكرز، مع العفو، وعند خروجنا مع حلول الليل في أيّار لنأخذ ابنَ عرس في أعشاشه، وُلِد رامون الصغير. كثيراً ما تأمّلته وأنا أهزّ له المهد ولم أستطع قط أن أعرف أيّة خيوط كانت تروح وتغدو بين تلك الأربعة كوبّة، النوع المُطبِق، وتلك الكرة الصغيرة من الزبدة. آه، كم كان يعرف دون فلِيثسْ!

صلّح له مولاي الساعةَ وذهب دون فلِيثسْ مع بغلته المِيْرية (نسبة إلى مِيْرا) وكان مستعجلاً للوصول إلى سوق كاكابِلوس، حيث كان يُريد أن يُبدّل البغلة ببغلة أكثر وداعة وشهيّة للأكل. حملَ داء الحصبة رامون الصغير ذات ثلاثاء من عيد المرافع إلى السماء عندما أكمل الخمس سنوات في عيد تطهير العذراء. كنتُ وقتها متزوّجاً من مانولِينيا

ونعيش في بّاثيوس وأسوق الزورق الذي ينقل الناس من ضفّة تريغاس إلى ضفّة مورِنثا.

- دون فِليثِسْ يعرفُ كثيراً-قلتُ لمولاي وقد عدتُ من وداع سلمنكا تلك.

- كلّ ما لا يُرى -ردّ دون مِرْلين، وهو يحمل بنعومة وبرؤوس أصابعه ذرّةً من نشوق إلى أنفه.

لِحامُ الأميرة الفضيَّة الصغيرة

الحقّ يُقال اعتقدت أنّهم جاؤوا بأحدهم إلى ميراندا ليدفنوه. بداية أتى عازفُ ناي، ملفّعاً بالسواد وخلفه صبيّ قدّاس يحمل مبخرةً وآخر على جواد يرفعُ صليباً، مُسربلاً في جبّة بنفسجية وطرطور. حين وصلوا إلى البوّابة الكبيرة اقتربوا من المتبنِ الكبير وبدأ عازف الناي يعزف لحناً حزيناً جداً وصبيّ القدّاس يُبخّر الهواءَ بعد أن وضع بخوراً في كأس المبخرة وأنزلَ الخيّالُ طرطور الدثار وكان راهباً حليقاً، وكان، حسب ما علمت فيما بعد، المساعدَ الأكبر للسيّد دوق لانكاسترْ. طلبَ منّي مولاي أن أفتح البابين وقال إنّه سيلبسُ بدوره ثوبه البنفسجيَّ ونصف تاج الأسقفية الذي كان عنده لأنّه مارس الطُّبَّيْن في مونتبّلير وسيضع على رقبته ميدعةَ الكليّة الصفراء، وكانت دونيا خينبْرا في الشرفة الرئيسة، مغطية نفسها بالشمسيّة فالشمس هناك قويّة جداً في مساءات أيلول. آلمني أنّني لم أعلم وأنّ الموكب باغتني وأنا بالقبقاب القديم والبلوزة المرقّعة والسروال المُصلح. جاءت السيّدة مَرثِلينا ومانولينيا و فرشتا الفناءَ بالورد والحصلبان وعشب المستنقعات. هما فعلاً كانتا ترتديان الثياب الجديدة. وما إن فُتِح البابان حتى دخل منهما اثنان يحملان سيفين على خصريهما، كانا فارسين حقيقيّين على كُمَيْتَيْن توأمين تلاهما

ثالث ليس بسرجٍ بل ببردعةٍ سمورية، مع أنّه كان فارساً حسن الهندام وكان دون شكّ أنبل من الزائرين وهذا سيّدي كان يحمل أمامه صندوقاً من الخشب النبيل والمصقول مشدوداً إلى البردعة، مطعماً بالذهب والحديد اللامع. جميعهم كانوا يرتدون البنفسجيّ، نزل الفارسان حاملا السيفين وأخذا الصندوق ونزل السيّدُ، الذي كان بطريقاً عجوزاً، حسنَ اللحيةِ، وضخم الجثّة، وعانق مولاي، رافعاً قبَّعتَهُ مزدوجةَ الشفّ والتفت إلى الشرفة وقام بإيماءة تعظيم واحترام. أخرج دون مِرلْين من كمّه رقّاً وأعطاه للفارس فأمر هذا أن يوضَع الصندوق عند قدَمَيّ سيّدي ومُعلّمي، ركب الجميع جيادهم ورفع مساعد الدوق صبيّ القدّاس وهو يسير ويسلم على دونيا خينبْرا التي كانت ما تزال في الشرفة وعلى سيّدي دون مِرلْين ومضوا خبباً في طريق كينتاس . جاء عازف الناي ليُقبّل يدَ مولاي ففهمت أنّه باق بيننا. كان غلاماً ممتلئاً ورزيناً، أحمرَ الشعر، كثَّ الشارب الأحمر والمصمغ جداً. أكثر ما كان يلفت الانتباه في هيئته ومظهره هو السيف الكبير الذي كان يحمله معلقاً إلى خصره بمشبكين على مستوى الوركين، بحيث إنّه حين يُنظر إليه من أمام كان يخرج من جانب نصف قضيب من الحديد مع طاس المقبض المشغول ومن الجانب الآخر قضيبين غمدهما أحمر

- هيّه أنت، يا فيليبّ، ساعد السيّد فلوتِ على إدخال الصندوق إلى غرفة احترامي، وأنتَ، يا سيّد فلوتِ تستطيع أن تضع سيفك في علاقة السيوف، إلى جانب رمحي، الذي سيجد نفسه مشرفاً به، هذا إذا كنت تريد أن تدخل وتخرج من هذا الباب.

انحنيتُ كي أضحك، لكنّ مولاي كان يتكلّم بجدّيةٍ تامَّة. لقد كان

هذا السيّد فلوتِ رزيناً حقّاً. أوّل ما قام به هو أنّه خبّأ النايَ بعد فكّه ونفخه، واضعاً القصبة وقطعة النفخ في كيس من الصوف، ثم أنزل سيفه الكبير والمخيف وتبعني ليعلقه إلى جانب رمح دون مرلِين وبندقيته "نابولي"، إلى جانب مسدسات الطريق الفرنسية والبندقية الطويلة وأخرج من جيب سرواله منديل أعشابٍ ونشّف عرقه وفتل رأسي شاربيه ونفض الغبارَ عن القلنسوة المربّعة وسوّى ريشة الديك الأبيض التي كانت تُزيّنها. بعدها فقط سار لينفذ ما أُمِرَ به من حمل الصندوق وأنا خلفه معتبراً إيّاه من شدّة خرسه أحمقَ. وكنتُ أرى، أنا الخادِمُ، أنّ مولايَ لم يكن راضياً عن ذلك الهدوء، وبقي بجانب الصندوق يضربُ الأرضَ بقدميه ويروّح بنصف قبّعة الطبيب. لم يكن وزن الصندوق يتجاوزُ الاثنين والعشرين رطلاً غاليثياً، أي الثلاثة وعشرين رطلاً ونصف من أرطال مدينة الكامبو، وهو الذي يعتمده الماراغتيون الآن في البلد. وضعنا الصندوقَ على الطاولة وأشعلَ السيّدُ مصباح النفط، الذي كنتُ أحبّه جداً حيث كان يحملُ على كلّ وجهٍ من وجوهه فوق الزجاج، صفيحاً منقوشاً ومرسوماً عن مشاهد من مآثر دون كيخوت: طواحين الهواء، المحكومون بالتجذيف في السفن، قِرَبُ النبيذ، والأسد الذي كان في طريقه إلى ملك إسبانيا. لم أكن أتعبُ من تأملها عندما يكون المصباحُ مشتعلاً.

- الآن -قال لي مولاي بجدّية كبيرة- أغلِق البوّابة ثلاثاً وضع العارضة الحديدية، وقلْ لخوسِه أن يفلت الكلابَ وخُذ السيّد فلوتِ إلى المطبخ وتناولوا عشاءكم، فالساعة الآن صارت التاسعة نوِّموه في سرير العلّية الجديد، وغداً يوم آخر.

تبعني السيّد فلوت دون أن ينطق بكلمة واحدة، وفي المطبخ سلّمَ على النسوة، حانياً رأسهُ حين مَسَّيْنَهُ ووضعت السيّدة مَرْثلينا أمامه على طاولةِ المقعد طبقَ لحم خنزير مغطّى بالطحين ومقلي وإبريقاً من نبيذ سان فيز، والسيّد فلوت بالنسبة للكلام لم يتكلّم. كان قد جاء معه بكلّ الجوع المتراكم فكرَّر أكل الخبز وقطعاً من اللحم ونصف أذن خنزير غاليثي كانت في الطيفور وأدخله في حوصلته. كان الإنكليزيّ يمضغ بسرعة. مدّ يده إلى الإبريق لآخر مرّة وجرع تماماً مثل مولاي، فكّ الحزام واستلقى إلى الوراء على المقعد، رابتاً ربتة قويّة على ظهري جعلتني أبصق نصف تفاحة كنتُ آكلها، وقال بصوتٍ مخنَّث أدخلنا نحن الحاضرين في ضحكة كبيرة.

- شكراً أنّ العشاء جاء وحان النوم! كيكي كيكي! -صاح بالدجاجات الثلاث التي كانت تُسمن في الأقفاص وراح هو أيضاً يبكي من الضحك.

- لم أكلِّمكم من قبل -قال وصار صوتُهُ الآن طبيعيّاً، صوتَ صاحب الشارب الكبير الذي هو- لأنّ فمي كان جافّاً، أو لأنّني أيضاً نسيتُ لغتكم، أو لأنّكم لم تُخاطِبوني بحضرتك، أو كي أجعلكم تتكلّمون، أو كي أسخر قليلاً. فأنا قادم من سفرٍ حزينٍ دام أياماً كثيرة، أقدّم التعازي في الطرقات، فأنا لا أعرف ما إذا كان النايُ سيتذكّرُ ما هو الرقصّ، كلّ ذلك بسبب تلك الفاجعة التي وقعت في مردوف، على بعد ثلاثين فرسخاً من بلاط إنكلترا. ما زلت حتى اليوم غير قادر على أن أحكي، لكن غداً إن شاء اللهُ، وإلهي هو إلهكم تماماً، سيكون عليّ أن أطلعكم على الأمور.

قال هذا بطبيعيّة وجدّيّة واحترام كبير، بينما هو ينهض وخرجت معه كي آخذه إلى سرير العلّية الفردي الجديد وأدلّه على المرحاض.

- دائماً كنت مشتهٍ للفارينادا مع شحم الخنزير! -قال السيّد فلوتِ من الباب وقد عاد ليبتسم للسيِّدة مَرْثلينا

نزلتُ صباحاً للقيام بواجباتي وكان السيّد فلوتِ ما يزالُ يشخر شخيراً مُوَقَّعاً. تكهَّنتُ بأنّ مولاي لم ينم، وأنّه قضى اللّيلَ يقرأ أعمال دون رايموندو لوليو وكورنِليوس وعلى المقرأ مذهبُ دون جابر العربي، حيث يتكلّم عن وزن أجزاء الجسم بالمقارنة مع أعضاء الأجسام البسيطة، حسب جدول ميسر ديوسكوريدِسْ. الأسماء والكتب التي كنتُ أحبّ أن أخرجها بمعزل عن ثقل الأحاديث وكانت تجعلني أمرّ كرجل أدب. كان الفرن مشتعلاً بينما السيّد مِرلين يقرأ وكان لا يزال أمامي أن أكنس المجمر أمامه.

- لا تكنسْ واجلسْ -قال لي السيّد مولاي-، وانتبهْ فأنا في حالة دقيقة للغاية. عليّ أن أقوم بواجبي كما يجب تجاه ذلك العجوز، الذي جاءني بهذا الصندوق في موكب. فيه سيّدة أميرة إنكليزية، نبيلة من بيت مردوف مقطّعة إلى أربعين قطعة، أكبرها بحجم الكشتبان، اسمها دونيا تير، وتعني "دمعة" بلغتنا. وأقولُ لك إنّ لِحامَ هؤلاء الأميرات ليس سهلاً ولا أدري من أين أبدأ وأجمع القطع، أَمِنَ الرأسِ أم من القدمين، مع الاعتذار. عملوا هذه الأميرةَ من فضّة وعظامها مغلّفة بالزجاج وكان أن عثر عليها السيّد مردوف في منطقة مكشوفة من الجبل فعشق لطفَ تلك الدمية وفكّر الجميع أنّها فنٌّ من فنون الساعة فاستدعوا أعظم ساعاتيّ سويسرا كي يتفقّد آلتها وذَهَبَ دون أوميغا،

إذ هكذا كان يُدعى، إلى مردوف وقال إنّه ليس لتلك الدمية مقرن ولا شعر ولا عقرب ثوانٍ وأنّها لم تكن قطعة فنية، بل مولود بشريّ. ذُهِلَ لورد سويت، الذي كان هائماً هياماً عظيماً بها وانتقل بسرعة البرق ليتصوَّر أنّها أميرة مسحورة وأنّه لا بدّ سيعشقها ويأخذها معه للزواج. وبنصيحة من دون أوميغا استدعوا طبيباً من سان أندرِس إدينبورغ، اسمه مس هيري، وتلك مدرسة طبّ شهيرة جداً ويتعلّم الأطباءُ هناك أن يُنشدوا باللاتينية من كتاب دوناتوس، ويتعلمون التشريحَ من فيساليوس والمطهراتِ من بَّاراثلوس وآلامَ الأعضاء التناسلية من دون فراكاستورو وأما ما يتعلّق بالدم والعلق فإنّهم يتبعون وجهة نظر سالِرنو، الذي يقول بالعموميات وكذلك الرغبة المواتية. وضع مس هيري الدميةَ بكثير من الحذر في ماءٍ ساخن وسكبَ في فمها ثلاثَ قطرات سذابٍ وأطعمها بماسورة ملتوية مستحلبَ القيقب وأمر أن تُنَشَّف جيّداً وتُمدَّد على فراش مع جرّتين صغيرتين وأن ينتظروا ليلة وأن تُلبسَها خادمةٌ ثياباً من حرير أبيض في الصباح، وسَيَرَوْنَ كيف أنّه سيصبِحُ عندهم في القصر أميرةٌ جديدة ، نظراً لسعة خيالِ مايلورد سيت وعشقه. وبينما السيّد هاري يرى تلك الغادة من فضّة ولا يعثر على نصٍّ آخر يخرجُهُ من شكوكه وكانت الأمُّ تلدها، جاء شخص غاضبٌ بسيف أو سكينٍ من فضّةٍ وقتلها في اللحظة التي تحرّرت فيها، وانتقل غضب المعدن إلى الدم وتبدّل لحم الوليدة. ربّما كان الغاضب زوجاً استيقظَ وقد وضعت له زوجته قروناً أو كان عاشقاً مغتاظاً، ونعرف من القصص، التي تتناول هذه الحالة الأخيرة، أنّ الحبّ لا يتوقّفُ عند الحبالى. وليَقُلْ لنا ثِسَر أوغوستو، الذي تزوّج من السيّدة ليفيا حين كانت حاملاً في

شهرها الخامسِ من آخر، إذا كان ما يحدث هو العكسُ. أيّ شيءٍ هو الحبّ، الذي لا يُعرَفُ متى يولد ولا متى يموت؟

أغلق مولاي كتابَ دون جابر العربي وكان مجلّداً ضخماً مفتاحه حَدائد تبدو دائماً أفاعٍ ملتفّة. تناول النشوقَ، ومخَّطَ مرّتين وكان سيتابع القصّة حين طلب منه السيّد فلوتِ، الذي وصل مرتاحاً تماماً والناي في يده، إذناً بالدخول.

- كنتُ أحكي لوصيفي -قال دون مِرلْين-، كيف عادت مايلدي سويت، الموجودة مُقَطّعة الآن في هذا الصندوق، إلى الحياة في قصر مَرْدوف.

- حدثَ كلّ شيء -قال السيد فلوتِ- تماماً كما كان قد أعْلِمَ مِس هاري وفي الصباح حضرت الخادمةُ الأكبر سنّاً ومعها ملابس الحرير الأبيض وألبستها للدمية فانتقلت هذه من لون الفضّةِ إلى لونِ اللحم، وفتحت عينيها وبدأت تتكلّم بملاحة فائقة وبما أنّها كانت جائعة فقد طلبت لِباً وبيضاً مُشَلّلاً. وما إن عُرِف الخبرُ حتى جاء الأمراء وأكثر من نصف النظراء وأصحاب السيادة من البلاط الذي يقع على بعد ثلاثين فرسخاً عن وينسور مَردوف، وفي المساء دخلت ليدي تيرِ إلى قاعة المرايا آخذةً بذراع ماي لورد سويت، بينما أنا أسيرُ أمامهم بنايي ألوِّن بها موكبَ الشرف. لم يرَ أحدٌ قط مَن هي بمثلِ جمالِ تلك الصغيرة الرقيقة. لم يعرف الموكبُ ماذا يقول، وسأل السيّد دوق لانكاسترْ مايليدي عمّا إذا كانت تعرف سلالتها فقالت هذه بكلامها الهادئ والبهيج، الذي يبدو كأنّه ريشٌ يُدغدِغُ أذنيك، إنّه باستثناء أنّها تنحدر من الملوك القوطيين

وأنّها حفيدةُ غالفان سين تيـيراً تقريباً وأنّها وُلِدَت في باريس في سان لوكاس، فإنّها لا تعرف شيئاً وإن كانت تتذكّر أنّها في طفولتها قضت صيفاً في روما في حديقة فيها بحيرة وشجرتا ليمون، وهذه الذكرى، يا سيّد مِرْلين، هي السبب بهذه الفاجعة والحِجابُ الذي كشف عن الخطيئة.

تباكى السيّد فلوت قليلاً، فأمره السيّد مِرلين أن يشربَ كأساً صغيراً من التوستادو (أغوأرديينت، نوع من العرق) ويواسي نفسه.

- موضوع مواساتي لنفسي أنا أواسي نفسي بل إنّني جئتُ من سانتياغو معترفاً أمام كاهن اللسان الملائكي القانونيّ. كنتُ أقول كيف أنّ الموكبَ أُصيب بالذهول من ذلك السحر، وأرادَ جميع النظراء أن يرقصوا معها والنساء رحنَ يلمسن شعرها ويسألنها ما العطر الذي تستخدمه، وله رائحة الورد الطريّ الناعمة تلْك. ارتدى اللورد سويت مَردوف دثاراً أحمر وأعلن أنّه سيتزوج من ليدي تير دِ غوتيا، حفيدة سين تيـيراً، المولودة في باريس، وكانت في حديقة روما. وكان هناك مباركات وأراد دوق الغال أن يتمّ العرس في قصر ويندسور وأن تُقدّم العروس للملك، فلم يقبل لورد سويت، لأنَّ صاحبَ الجلالة اللطيف كان أعمى، وسيكون عليه أن يعرف باللمس ما إذا كانت ليدي تير تامّة الخلق، كما كانوا يقولون وما إذا كان لحضورها كلّ تلك الطلاوة. آه كم كان لها ذلك!

وواسى مِستر فلوت نفسَهُ مرّتين بالتوستادو الذي قدّمتُهُ له وكان هذا المشروب كراءَ الأرض يدفعه سانخوانيو ريبادابيا لمولاي. دوزن النايَ وعزفَ مقطوعة جميلة جداً.

- موسيقى هذه الرقصة وضعتها على الورق لرقصة أعراس سيِّديً

واسمها "swan,s pavane" وتعني "رقصة البجع" والآن ترقصها إنكلترا كلّها وأرملة السيّد مطران ليفربول، الذي يضع كلّ سنة التقويمَ في كوبلات، وضع لها كلمات مؤثِّرةً جداً. تزوَّج سيّداي وكانا في غاية السعادة في مردوف، ويزورهما كثيراً أصحابُ العظمة، حتى بدا البيتُ مسرحاً، حتى وصل ذات ليلة نائبٌ من كاليس في فرنسا ويُدعى مسيو فِرميل.

- لا بدّ أنّه الآن عجوز -قاطعه مولاي- فهو على أبواب السبعين، عرفته في روان في نورمنديا، وكان منذ ذلك الوقت يُسرّح شعراً شائباً، وكان هناك يتابع دعوى كبرى ضدّ حوريّة بحر وكان هو لصالح آنابولنا ويرتدي سترة خشنة القماش تَغَيَّر لونُها بفعل عوامل الطقس. إنّه خبير بالقانون الوضعي كما بالقانون الكنسي، وبالتحايلِ أيضاً.

- يستعمل اليوم الدثار الخشن ذاته وإن زيّنه بطيَّتين من قطيفة الأستراخان، وأمّا فيما يتعلّق بالعمر، فهو لا يظهر عليه، تماماً كما قدَّرتَ أنت. ذهب إلى مردوف بحثاً عن وصيٍّ كان يقول إنّه إشبين مايليدي تير، وترك لها في روما الحديقَة، التي ترعرعت فيها سيّدتنا مع مياه جارية اثني عشر يوماً في الشهر، ومقعداً في سان لورنِثو خارج الأسوار وببغاءً كان يقول: "Je sui le beau perroquet" "أنا الببغاء الطيّب" أودعَهُ في بيت قريب لواحدٍ من محكمة التفتيش لارتيابٍ بهرطقته، وكان هذا القريبُ قد قدّمَ له مقدَّماً أربعة أرطال إنكليزية من الأغذية. قرأ اللورد سويت ملحقَ الوصيّة، مرّ على النفقاتِ وذَهَبَ مايلورد ومايليدي مع النائب إلى روما، إذ خطر للسيدة أن تقطف في شهر أيّار ذاك، الذي هو أيار الماضي، وردةً من حديقةِ مرتعِ طفولتها. كانت اللورد

سويت من المعارضة، لكنّ لِيدي تير كانت مُعَمَّدة، بحسب ما تذكَّرت وتُؤكّد شهادةُ إشبينها في الكنيسة الرومانية المقدّسة. حين وصلوا إلى الحديقة وجدوا أنّها مهجورة تماماً ومواسير البحرة مسدودة وحقل توتِ الأرض أكلَهُ البزاق، والدالية ساقطة على الأرض من دون شبكها ولم يكن هناك غير شجرة ورد واحدة عليها زهرتان فقط، واحدة بيضاء وأخرى حمراء، وكانت على سطح المعْشَى. أرادت مايليدي أن تصعد لتقطفهما فأخذ النائب فِرميل على عاتقه موضوع السلّمِ اليدوي. قطفتهما سيّدتي وراحت تَنزلُ واضعةً الوردتين في فمها كي تستند بيديها الاثنتين إلى السلم، وهنا خرج من المعْشى رجلٌ طويل يرتدي ملابسَ على طريقة أهل البندقية، مُغطّى الوجه. كان قد قضى ساعتين مختبئاً في المعشى، قال بصوتٍ حزين لمولاتي، التي بقيت عالقةً في أعلى السلّم:

- أنا أيضاً كنتُ أعرفُ، يا صديقتي العزيزة، أنّك ستعودين! تذكّري أنّنا متزوِّجان، وكم أحببنا بعضنا بعضاً!

"سحب اللورد سويت سيفَهُ، لكنَّ المجهولَ كان أسرعَ منه، فمزّقَ من فوق مسيو فِرميل قلبَ اللورد سويت بسيفه الميلاني الطويل. أطلقت ليدي تير صرخةً هائلة وسقطت على الأرض مغشياً عليها ، حيث تحطّمت وصارت نتفاً من فضّةٍ وزجاجٍ موجودة الآن في هذا الصندوق المحظوظ. هرب القاتل المجهولُ وراح يقرع جلجلاً، من تلك الجلاجِلِ التي كان يحملها في أعناقهم المصابون بالبرص في البندقية، كي يتنحّى من يسمعُهم من المارّة من طريقهم. لم تستطع شرطة البابا أن تتحقّق من شيء، اللهم غير أنّ سيّدتي كانت متزوّجةً ومحميّة ومنكوحة من قبل

دون جيوفاني دِ ترِفيسو دِ أراغونا، الدوق الذي كان من رجال أسطول البابا، ولم يعودوا يعرفون عنه شيئاً منذ شهرٍ من شهورِ خريفٍ، خرج فيه من البيت، ناذراً نفسه لسيّدتنا الموجودة في لورِتو. وضعوا اللورد سويت في برميلٍ من العسل الأسود المُتَبّل وليدي تير في هذا الصندوق وغادر مسيو فرِميل جنوى مُبحراً ومعه الجسدان الميتان. تأخّر سبعةَ أيّام في الوصول إلى دوفرْ، تركته ريحٌ خفيفة أمام لشبونة. والآن والسيّد دوق لانكاستر يتحمّل النفقات، فإنَّ بلاطَ إنكلترا يضع بين يديّ السيد دون مِرْلين بقايا من كان، ولا أتكلّم عن نفسي، القلبَ العاشق لمن كان في النهاية يغني بلطفٍ ويرقص على نغمة نايِيَ السعيد بل عن كلّ أولئك الذين رأوا تلك الوردةَ تُشرِقُ، أقول عمَّن كان مرآة جمال كلِّ هذا العالم.

أجهش مسيو فلوتِ بالبكاء وجعلني أُجْهِشُ معه، متألّماً إلى حدّ أنّني اقتربتُ من الإنكليزي ووضعتُ يدي على كتفه كصديقٍ عزيز. وعندما حمل السيّد فلوتِ النايَ إلى شفتيه عزفَ سيرناتا حزينة. دموع بحجم حبات الكرز كانت تجري على خديه الطافحَيْن وتتوقف عند شاربيه الشقراوين. لو أتيحت الفرصةُ لمسيو فلوتِ ما كان ليرتدع عن أن يُركّب قروناً للورد سويت، مولاه. هذا ما اعتقده.

كان السيّد مِرْلين يُغلق على نفسه الفرنَ ولا يقول شيئاً عن كيف كانت تسير أمور اللحام وكان قد مرّ أسبوعٌ عندما أرسلني كي أستدعي السيّد فلوت، فشرح له بتلك الجهامة والصراحة اللتين كانتا لسيّدي ومولاي، كيف أنّ لحام تلك الأميرة لم يكن سهلاً.

- كلّ الذي استطعتُ أن ألحمه هو أصابع اليد اليسرى الخمس وقد

لا أستطيع أن أعيد تركيبها كلّياً، ويبدو أنّ زهرة الأنف وبعض نور عينيها على الأقل ضاعا في حديقة روما تلك، عُدْ وقُل هذه الأخبار للسيّد دوق لانكاستر وميس هاري. ثمّ إنّ هناك، وهي حالة ضمير، مسألة أنّني تلقيت البارحة رسائل من دون جيوفاني د تريِيسو، المُصاب فعلاً بالبرص ويوشكُ أن يموت يريد منّي أن آمر بأن يقيموا لمن كانت زوجته الشرعية قداّساً. وأنا أشرع في هذا. أكثر من أحزنُ عليه هو أنت، يا صديقي، فأنت لن تعود لتعزف رقصةَ البجع لهذه المخلوقة الشقيّة.

أمضى السيّد فلوتِ يومين يبكي خفيةً وأخيراً سافر عبر طريق بِلفيس وذهبتُ معه حتى غولبّيّرا. وأُقيمَ قداّس جنائزيّ في كينتاس وألقى راهبُ لاس غواس التاركُ للرهبنة والنبيهُ جداً عظةً كشف فيها بجلاءٍ عن بطلان هذا العالم، وعن أن "المرأة المتزوّجة رِجْلٌ مكسورة وفي بيتها" وأنّ مراعي موثين كانت لدير مِيْرا وسيشاهد من كانوا يريدون شراءها أنفسهم وقد نزعت أكفانُهم عنهم وفاحت من رؤوس بعضِهم رائحةُ البارود. كم كان خطيباً عظيماً ذلك الريوخي!

مرآةُ المُسْلِم

المسلم الذي أتكلّمُ عنه كان مسلماً فعلاً، من الذين يزرعهم اللهُ ليجعل بساتينَ هذا العالم تُزهر. كان يستعمل طربوشاً أحمر ويضع في أنفه وأذنيه حلقات من فضّة، كان جدِّيَّ الوجه، صغيرَ الجسم، مقوّسَ الساقين جداً، يموه تقوسهما السروالُ وكان لجوجاً وحريصاً في تعامله التجاريّ، طويلَ الحديث وجريئاً، وإن كان يحبّ أن يحكي لك أكثر الأشياء فهو يعتذر، كمن يريد أن يحمّلك وزرَ سرٍّ. ويظهر هذا من اسمه، الذي هو عند هذا المصطفى "السرّ" الذي هو في لغتنا "el secreto". كان يبيعُ الإبرَ المغناطيسية أو إبر الدوخة وكتيّباتٍ عن شخصية الذواقة وكلّ أنواع العطور وكتب التاريخ حاملاً معه بينها دائماً قصصَ" برتولدو، بِرتولْدينو وكاكاسِمو"، و "جينوفيف دِ برابانت" و"غراميات غاليانا الجميلة" و"رواية ضرطة الشيطان" التي كتبها السيّد غوي تاباري. لكنّه في هذه المرّة لم يأتِ تاجراً بحسن سلوك من الباب العالي إلى ميراندا، وهو ما كان يفعله عادةً، بل جاء ليفكّ أسرار الرؤى التي كانت تظهر فجراً في المرآة التي جاء بها معه، وكذلك كي يُحقق في حالة أمير من الصحراء حاول أن يسمّم أميراً آخر بجعله يشمّ الدراقن، التسميم بمعنى التسميم لم يسمّمه، لكنّ الشيخ روفاس وَهَن منذ ذلك الوقت وصار يحلم

في كلّ ليلة بأنهم يقتلعون عينيه برأس سيفٍ فيستيقظ صارخاً، وكان قد دخل الرعبُ في جسمه وراح يموت رَوْعاً وصارَ من الخوف، صار طاغية مريعاً ويأمر أن يقطعوا رأسَ كلِّ من ينظرُ إليه خِلسةً. حتى طبيب خديوي مصر الإنكليزي راح يتحسّسه جيداً وسمع صدى جبينه بمطارق فضّية، وفصد له دمه ووصفَ له لصوقاتٍ من جلد الضفدع على الصدغين، وتدليكاً بزيت جوز الطيب ومطهرات بالكمون المعالج وحمامات باردة لمنطقة العورة وإن أمكن فليكن بشاي باركينز، إذ بهذا الشكل تُهَدَّأ العوانس في إنكلترا، كي يستطعن أن يحضرن قداسات الاحتجاج (بروتست) بشيء من التأثر. لكنّ هذا الدكتور المدعو غالووس لم يبعد الحلمَ المريع وكان السيّد روفاس في طريقه ليصبح مجنون كونخو. والفائدة من شفائه كانت كبيرة، ذلك أنّه كان الوحيد بين كلّ الملوك العرب الذي يعرف الطيران على البساط السحريّ، ومتى تُخصى جمالُ الحربِ، ومن الضروري أن ينقل أسرار العلم هذه إلى أفتى أولاده ساعة موته، وإذا ما أصابه الجنون الكلّيُّ ضاعت بالتأكيد المعرفة بذلك الطيران وبالخصاء أيضاً.

كلّ هذا راح يتعلّمُهُ شيئاً فشيئاً، ذلك أنّ السيد السرّ كان، كما أقول، يُحِبّ أن يصبّ الغموض حول حكاياته وهو ما كان يُكلّفه جهداً، وكان من ناحيته أميناً إلاّ في الغرف. كانت المرآةُ التي جاء بها قطعةً إيطاليّة صغيرةً مستديرة ومؤطّرة بالفضّة لها كلاّبٌ بصورة كلبٍ وكان أنّ لهذه المرآة رقّاصاً في نهايتها ، كما لو أنّ الساعاتي الذي صنعها أرادها مرآةَ دقائق كي يرى مرور الساعات البطيئة. هذا ما أقوله أنا. اشترى السرُّ المرآةَ من سوق تيلسيت من يهوديّ خزري، عنده هناك

حانوت نعناع وماء للأحلام ومهاميز للحظّ وقد عرفتُ ذلك السوق من خلال سيدي السرّ والساحر إليماس (العالم) الغريب وهو بحجم سوق ليون مرّتين وبحجم مونتِروّسو أربع مرات، وهو ميدان كبير مليء بالحوانيت وهناك أسرة من تسع أمم تتمتّعُ بحقِ أن تضعَ فيه ثقلها وترجمانها، مؤمّناً بقيّة العارضين على الوزن كاتب الحاكم العسكري في براندنبورغ، الذي يذهب أيضاً إلى هناك كصاحب خيمة، فهو وحده في ذلك السوق يستطيع أن يبيع نعالاً للبغال والخيول مع ترخيص بالحمير لسدنة الجيش التوتوني. أقول سوق مشهور حيث يُشرى ويُباع كلّ شيء، حتى ما لا يُرى. اشترى السرّ المرآة وباعها له في إليسنور دِ دانيا إلى كونتيسة، وهي كونتيسة صغيرة تعيش في تلك القلعة، وتسمى دونيا أوفِليا.. وبما أنّها كانت تُمطِر تذكّروا أن يمنحوا المسلمَ مبيتاً في القلعة، التي هي سور كبير من الحجارة فوق البحر الهادرِ والتي كانت حديقتها في الداخل في رواق كأنّه كنيسة، للوقاية من الرياح البحرية.

- كنتُ نائماً -حكى السِّر لسيّدي مِرلْين-، غافلاً تماماً، برجل مسترخية كما يقولون، فقد كنتُ قد قدمت متعباً من سوق تيلسيت، بل ونمتُ فرحاً، نصف حالم بشقلبات مع دون أوفِليا، التي هي كلّ ما يجب أن يُرى في كونتيسة ابنة خمس عشرة سنة، بحنجرتها البيضاء... كنتُ نائماً حين أيقظتني صيحات هائلة وجاءت لتستدعيني أمام السيّدة الكونتيسة كبيرُ خدمها، التي على الرغم من أنّها جاءت نصف عارية وحدائد تجعيد الشعر على الشعرات الأربع المتبقّية لها إلا أنها أحضرت معها الوصيف الصغير، حامل أذيال الفساتين، ممسكاً بمنصّف قميص النوم المطرّز. دائماً كان هناك في إلسينور قواعد تشريفات. أدخلوني

إلى قاعة الكونتيسة الصغيرة، التي انفجرت في بكاء وتنهدات فجائية، وطبيب الملك دون هاملت يُحاول أن يعيدها إلى وعيها ويحملها على تناول منقوع زهر الزيزفون مع اليانسون. جميعهم وقفوا ضدّي قائلين بحضوري إنّني بعتُ الآنسةَ مرآةً مسحورة، حيث كان يظهرُ فيها، عندما كانت تنظر إليها ساعةَ النوم وهي تمسّد شعرها، أشباحٌ من كلّ الأنواع، شيطان يتدلى من شجرة إجاص، حصان يقفز من الشرفات إلى البحر، وهي نفسها مخنوقة في أسفل النهر، وقرلي يرتاح بين تفّاحتي صدرها الحلوتين. أنا لم أكن أعلم عن سحرِ المرآة شيئاً ومن كثرة ما رددتُ عليهم ذلك صدّقوني، وأعدت لهم النقود والأرباحَ وأمروني أن أذهب في الصباح مع حليق قمة الرأس في دانيا، دون هاملت، هذا الذي تحدّثت عنه، لم أُغمِض عيناً وبقيت طوال الليل أنظر إلى نفسي في المرآة، وما رأيته فيها، عابراً مثل سحابة فوق وجهي كان جمعٌ من ناس حمر الثياب، وجواد أبيض يرمي بنفسه إلى البحر، ودونيا أوفليا، مخنوقة وشجيرة عوسج في الماء علق بها فستانها الأزرق وجعلت الجسد اللطيف يدور وكان الرأس هو الذي يشقّ طريق الأمواج والكونتيسة الصغيرة مفتوحة العينين الخضراوين الواسعتين والحميمتين. كنتُ أرى هذا حين دقّت الساعةُ معلنةً في برج روندا الثانية عشرة وانمحى كلّ شيء من المرآة، وبقي وحده، شديد اللمعان وجهي الأسودُ على ضوء الشمعة. عرفت لاحقاً أن رؤى المرآة حدثت يوم السبت منذ حلول الليل وحتى الثانية عشرة ليلاً وكانت كثيرة الأشياء التي استطعتُ أن أراها. وبعضها قد تمّ.

سكت السيدُ السّر، كما لو أنّ ظلاً مؤلماً حطّ في خياله، وقال مولاي بجدّية كبيرة وهو ينظّف نظارته ببطانة سترته الحريرية:

– هذه المرآة التي جئتَ بها، يا صديقي السرّ، أعرفُها كما أعرف قبّعتي، فقد كان لي حصّة في فنّها وصناعتها، وذلك بتكليف من صاحب السيادة في البندقية، وهي أكثر الحكومات التي أملك عنها فكرة في العالم، وتقوم على قراءة المستقبل. حدث أن تجاوزت الحدّ قليلاً في مزيج مادتها، وهذه المرآة الملعونة، حسبما عرفت فيما بعد، بدأت تحيك مع المستقبل الحقيقي أشياءَ هي نفسها كانت تبتدعها، بما في ذلك الناس، فقد ابتدعت المتمرّدَ، حيث راح سادةُ البندقية يبحثون مثل المجانين عن قاتلٍ لم يكن يعيش إلا في خيال هذه المرآة، ويستقصون عن ميتات وشحنِ التوابل والسفن التركية التي كانت تبتدعها هي نفسها، والكنوز الخفيّة والكؤوس المليئة بالمياه المُذيبة. وأنا، يا صديقيَ السرُّ سأشتريها منك الآنَ بما دفعته أنتَ في تيلسيت ومثله من الفوائد وسأكسرها ألفَ شظيّة دون أن أنتظر للغد، الذي هو سبت، كي أرى في ميدانها دونيا أوفليا هذه مخنوقة في نهر الدنمرك الذي يحملها إلى البحر، وربّما كانت هذه الصورة واحدة من الحقائق القليلة التي روتها هذه المرآة منذ زمن وحتى هذا الوقت.

نهض مولايَ ومضى إلى درج الطاولة الكبيرة، أخرج كيسَ الذهب وعدَّ أونصة ونصف وراح يترك البِسوات المعدودة والطنانة تسقط في تجويفِ يَدَيّ سيدي السرّ، الذي عاد وعدّها قبل أن يُخبّئها في جيبه.

– سيادتكم تأمرون وأنا أرضى. وقد فهم دون هاملت بعضَ ما كانت تحيكه هذه المرآة، حين انتقلت إلى حضرته. كان السيّد الأميرُ جالساً، حسب عادته، على الكرسيّ الحجريّ الذي يُزينه ثعبان منحوت، يُداعِبُ جمجمةً، وأمرني أن أجلس عند قدميه، وكلّمني بأدبٍ وقال لي

بالصوت المتأنّي والجليل الذي كان له، لا يمكن أن يكون كلّ ما تعكسه تلك المرآةُ نبوءة حقيقيّة ولا شيئاً يخطر لكاتب أن يكتبه.

- " أنا لا أريدها في بلدي الدنمرك-قال لي-، يكفيني أن أتلمَّسَ اليومَ الذي أنا فيه، دون أن أحشرَ نفسي في العذاب من أجل المستقبل. لا أحد يملكُ من هذا الحلم المشوّش الذي نسميه الحياة خيطاً، يا السرُّ. أمّا بالنسبة إلى دونيا أوفليا، ألم تكن هذه المرآة تريد أن تُقارنها بشجيرة ورد الضفّة، التي ستسقط منها حتماً زهرةٌ ما ذات صيفٍ سعيد، إلى الأمواج، التي ستحملها معها بوداعة؟ ضع مرآتَك خارجَ مملكتي، أيها السِّرُّ المُسلمُ، وإذا ما علمتَ ذاتَ يوم أنّ ما رأيته في زئبقها كان حقيقةً، فمن الأفضل لك أن تكسرها على حجر في الطريق.

" هذا ما قاله لي وغادر الكرسيَّ، لافاً حول ذراعه الأيسر ذيلَ معطفه الأسود، وواضعاً الجمجمة في النافذة. ودّعني الملكُ بودّ وحزن.

كسر السيّد مرلين المرآةَ في المهراس الكبير وخلط الشظايا الألفَ بملحٍ وسنٍّ ثومٍ قشتاليّ وطبختُ أنا الرملَ في الفرن بحسب طلبه، ولكي يشفي الشيخَ روفاس حضَّرَ مولاي ماءً جليلاً وبعضَ الحبوب المطهِّرة، ورجا السيّدَ السِّرَّ كثيراً أن يبعث له بأخبار عن صحّة الأمير الخاصي. كرَّمني المُسلم بـ"رواية ضرطة الشيطان" نظراً لعنايتي الكبيرة بحمارته التي كان يُسافر عليها، ولأنّني شفيتُها من ثؤلول كان في خطمها.

- لم أبغِ أن أحكي للسيِّد السِّرَ -قال لي مولاي، ما إن غادر المسلمُ- أنَّ دونيا أوفليا قد أتمّت موتَها حين كانت تلهو على الضفة بقطف أقحوان المروجِ وسقطت في النهر واختنقت. لكَ أقولُ، يا عزيزي فليبّ، لم يبقَ في العالم ملكٌ عنده ما يُحزنه ما عندَ السيّد هاملت الدنمرك هذا.

عمود الذهب

جاء قزمُ القلعة ذاتَ صباحٍ ليتكلّم مع مولاي بسرّية كبيرة، ورأيت جيّداً أنّه جاء قلقاً ومعه روايات من كِبَرِ الحجمِ، ما جعله لا يتوقّف عند ظرافاته المعتادة، مثلَ أنّ عليَّ أن أقومَ بحركات الاحترام له في البوّابة، أن أُثبِّت الركاب له، وأن أنفضَ الغبارَ بقبَّعتي عن كتفيه. رمى هذا الجسور بالمظلة بين يديَّ وقفز عن الفرس ودخل ليتحدّث مع السيّد مولاي دون أن يقرعَ باب الفرن. كان يعتبر هذا الأكرش نفسَهُ سيِّداً عظيماً لأنَّهُ يعرف الفرنسة ويُزَيِّنُ تسريحتَهُ بشرائط مُلوَّنة. رحتُ، بعد أن سحبتُ الفرسَ إلى الظلّ ووضعتُ للمسحج الحجري الصغير الذي كنا نسن عليه السكاكين جلداً جديداً وكنتُ أَجرّب كيف سيكون إصلاحُ سكيني، سكين تاراموندي الصغيرة، حين صاح بي دون مرْلين وذهبت إليه رهنَ أوامره. كان مولاي يتمشّى في الغرفة متجهّماً جداً والقزم يجلس على الصندوق وكان من الانكماش بحيث إنه ونظراً لأنّ الصندوق مَقعدٌ لم يكن طرفا قبقابه يصلان إلى الأرض.

- يا صديقي فِليبّ -قال لي سيّدي مرلين-، عليكَ مع حلول ليل هذا اليوم أن تخرجَ في رحلة، دون أن تقول لأحدٍ إلى أين أنت ذاهبٌ، ولا لماذا تذهب. سترتدي أفضل ملابسك وستضع في عنقك هذا الجلجلَ

الفضّيَّ وستحمل على بغلةِ مولاتنا سلّةَ التفاح الكبيرة نظيفةً جداً وتضع في قاعها بطانيةً جديدة كفراش. وتذهب في طريق بّاثيوس حتى تصل البحيرةَ وتضع السلّةَ على العشبِ، بين صخورِ لوس كابوس، مرفوعةَ الغطاء وتجلس وظهرك للسلّة، هادئاً، صامتاً حتى تشعر بصفيرٍ طويل، عندها تلتفت وتنزل الغطاءَ دون أن تنظر إلى السلّة وتُدخل الخابور في الحلقة، وقد تجد صعوبةً في رفعِ السلّة إلى ظهر البغلة، لكنّني سأرسل إليكَ قوّةً بذاكرتي، ثمّ تأتي مهرولاً إلى ميراندا دون أي إجراء آخر.

- وماذا لو قطعت الأسرةُ الأخرى الطريقَ عليه ؟ -سألَ القزمُ، الذي كنت ألاحظ أنّه فزعان وخائف.

- ستأخذُ معكَ بعضَ علب الكبريت البرتغالي -طمأنني مولاي- وإذا شعرت ببعضِ الكلاب تقفز مثل الفئران سرِّعْ الخببَ ولا تتوقّف عن إشعال أعواد الكبريت. أيضاً تستطيع أن تصرخ إذا وجدت أن ذيولها ملتوية.

كنتُ أحبّ كثيراً هذه المُهمّات! ولم أكد أتناول غدائي من السرعة، ولم تكن قد صارت الساعة الخامسة حين كانت البغلة جاهزةً في البيدر والسلة والبطانية فُرشت في عمقها، وقد ارتديت سترتي الطويلة وانتعلتُ مُدشناً القبقابَ المُنعَّل، ولكي أُمضي الوقتَ وضعت للسلة خابوراً جديداً من البقس ولويته من الجهتين. يُخرِج قزمُ القلعة، الذي كان يتمشّى في الفناء مختالاً بقبّعة قشّه بين البوابة والبيت، الساعةَ من جيب صدرته ويضعها على أذنه ويقول لي الساعةَ. فحصَ الخابورَ وأمرني بأن أقوم بعملية إغلاق السلّةِ وأنا مُغمض العينين، وسرّ إلى حدّ أنّه ربتَ على ظهري وقال لي إنّني رجل تام. وما إن أصبحت الشمسُ

من جهة مِيْرا حتى خرج مولاي إلى الشرفة وأمرني بأن أركب وأنطلق وأن أقوم بما أمرني به حرفيّاً، وأنّه سيُتابع مُغامرتي بفكره. ضحكتُ عند خروجي من البيت قليلاً لأنّ القزم اضطُرَّ لأن يُقرِّب حجراً كي يصعد فوق حديدِ خوخة الباب ويفتح لي البوّابةَ. راودتني فكرةُ أن آمره بأن يرفع لي قُبعةَ قشّه، كما كنتُ أرفعُ له القبّعة أو الكمَّةَ. انعطفتُ في الطريق القديم ورحتُ أتدرَّبُ على إشعال أعواد الثقاب دون أن أفلت الرسن أو أخلّ بمشية الدابة، وجعلت البغلة تخبّ ومع خببها راح ينط الجلجلُ الذي أحملهُ في عنقي، تماما كما لو أن صبيٍّ قُدّاسٍ مجنون يركضُ بقداسهِ عبر البساتين في الليل الذي كان يُطبِق. وحين انتبهتُ كنتُ قد أصبحت في لوس كابوس وبصعودِ الضبابِ من البُحَيرة صار الليل كله ظلمة. عملت كما أُمِرْتُ، ولم أبتعد عما قلت إلا في أن البغلة كانت مُضْطَربة ولا تهدأ، فربطتها إلى الصخرة الصغيرة وأعطيتها تفاحة وراحت تهدأ شيئاً فشيئاً. قليلة هي الأشياءُ الأكثر صمتاً في العالَمِ من صمت بحيرة إسمِلٍّ الكبيرة في غير موسم الضفادع. نبحت كلابُ القلعة، وأنا أتابع جوقة كلاب باثيوس التي كانت تردُّ عليها ، تلتها كلابُ سيْكسيدو، وأبعد منها كانت كلاب بِّينيْروس وكلابنا وأخيراً كلبة صيّاد بِلْفيس، فبدا لي، وأنا أسمعُ تلك الأصوات المعروفة، أنّني مُرافَق تماماً حين طنّ الصفير في أذنيَّ وكان من القرب بحيث إنّني شعرتُ بإعصارٍ من الهواء في نقرتي. انتظرتُ لحظةً وأنزلتُ الغطاءَ حتى دون أن أنظر إليها، وأدخلتُ الخابور ورفعتُ السلّةَ إلى البردعة بسهولة كما لو أنّها ريشة. لا بدّ أنّها، حسب ما بدا لي، ذاكرةُ المساعدة التي أرسلها دون مِرلين.. ركبتُ وأطلتُ الخببَ في الغابة وبما أنّ بغلة مولاتي كانت معتادةً على ذلك المشوار كانت

تمضي ظريفةً وسلسةً في طريق ميراندا. ما قاله القزم، العائلة الأخرى لم تخرج للعبة، لكنّني، إيجاباً أو سلباً، أشعلتُ عودي ثقاب وجعلتُ الجلجل يهجّي صلاة المساء، صرخت إنّني أرى أذيالاً مجعدة ووصلت إلى أبواب ميراندا وبي بعض الخوف، فقد كنتُ أشعر بدبيب ونفخ في السلّة وبحديث يشبه قرق الدجاج.

كانت البوابةُ مفتوحة وخوسيه دِل كايرو أيضاً بثياب جديدة يحمل مصباح العصا، الذي يذهب به دون مِرلين ودونيا خينبرا إلى موكبِ سان بارتولو الديني في سِيْكسو مشتعلاً وكان بابُ الفرن مفتوحاً على مصراعيه وكلّ الأنوار مشتعلة والقزم والكمّة في يده وسيّدي بالمعطف المضاعف وقلنسوة الشرّابة. أنزلَ مولايَ السلّة وهمّ برفع الغطاء، وما إن فعلَ حتى قفز خارجَ السلّةِ ستّةُ رجال صغارٍ طولُ الواحد منهم أقل من شبرٍ ليونيّ يرتدون بشكلٍ حسنٍ ملابسَ خضراء وحمراء ويعتمرون قبّعات كبيرة، ركعوا جميعهم أمام دون مِرْلين، رافعين القبعات باستثناء واحدٍ بقي واقفاً وخطى نصفَ خطوة احترام إلى الوراء وألقى تحيّةَ المساء وكان كلامُهُ القَرْقَ الذي سمعته أثناء قدومي في الطريق.

- منذ سنوات طويلة، أيّها السيّدُ الأمير -قال مولاي لتلك الدميةِ باحترامٍ كبير- تقابلنا في ترورو، حين كنتم تَتَربّون في تلك المدرسة، وكنتم تعيشون في كمٍّ ابن عمّي السيّد نائب قائد الكورس، أسكنه الله فَسِيح جنانه.

قام المُلقَّبُ بالأميرِ بنصف خطوةِ احترامٍ أخرى وتبعَ دون مِرْلين إلى الحجرة ودخل خلفه عُقَلُ الأصابع الخمسة الآخرون وقزمُ القلعة. والحقيقة

أنّني كنتُ مذهولاً من تلك الجماعة التي كانت تعبرُ. لم أتذكّر حتى أن أُدخل البغلة إلى الإسطبل ولا أن أُطفئ مصباحَ القضيب، الذي وضعه خوسِهْ كارلوس دِل كايرو أمام أنفي لأنّه كان يعرف أنّني أُحبّ المزاح.

لم أعرف كيف أخرج من الفناء ولا كيف أذهب إلى الفراش، كي أرى إلى ما ستنتهي إليه تلك الجلسة، وجلستُ عند قدم التينة لأُشْعِلَ أعوادَ الثقاب البرتغالية المتبقّية: كنتُ في هذا حين خرج قزمُ القلعة ليأمرني بأن آتي ببعضِ الكعك وبرشفة نبيذ توستادو. انسلَلْتُ بذريعة خدمته إلى الغرفة، حيث كانت الجماعةُ الصغيرة تجلس على الصندوق والسيّد الأمير على كرسيٍّ مولايَ ودون مرِلْين على مقعد حجريّ يقرأ اللاتينية في كتابٍ، والقزم يحملُ الشمعدان بجانب المقرأ ويُقلب له الصفحات، ماطّاً نفسه كي يبلغ طولَ سنبلة قمح. كان مولاي يقرأ مُرَنِّماً بصوته مثل كاهنٍ مُرَتِّل، والأمير مشدود، كعارف بذلك العلم، بينما صغارُ عائلته الآخرون يقضمون بصوتٍ مسموع الكعكَ بعد بلِّه بالتوستادو.

- كلّ هذا يؤكِّدُه دون كونليو أغريبّا -قال مولايَ متوقّفاً عن القراءة ورافعاً النظارة الصدفيةَ عن عينيه- وأنا أتبعُ هذا السرَّ حرفيّاً وإن كنتُ من مدرسةٍ أخرى. عمود الذهب، الذي يستند إليه قوسُ الأرض الثاني ينطبق على آخر أربعةِ عظام من عصعصِ الإنسان وفي النجوم مع ما يسميه العرب التحليل ونسميه نحن المريمات الثلاث. للقوس الثاني للأرض دعامةٌ في أرماغ في أيرلندا حيث ينفتح بئر سان باتريثيو وأخرى في روما، تحت كنيسة سان خوان لاتِرانو المعظّمة وحجر العقد الكبير،

الدعامة الأساسية هي مدينة أغيسغران. وهكذا فإنّ هذه الكثافة من الذهب التي عثرتم عليها وأنتم توسِّعون حقلاً كي تلعبوا بشكلٍ أفضل لعبةَ الأوتاد، هي جزء من عمود الذهب، وإذا ما بدأتم سكّها نقوداً، فلا شكّ أنَّ نصفَ فرنسا سينهار ولن يبقى من فنلندا ولا حتى خطّ فلاحة وبرأيي فإنّ الأونصات التي تقطعونها لا تصلح لهذا الاسترداد الذي تفكرون القيام به لابنة دونيا كارولينا.

- ابنة دونيا كارولينا هذه -قَرَقَ الأميرُ- هي ملكتنا وسيّدتنا والشعب البيغمي يتيم منذ غادرت لتتعلّم التطريزَ وصناعة حلوى اللوز عند دلفينا تولِهْ وأنا سيّدُها باريس، زوجُها الموعود، أشيخُ عازباً، وقد عرَفْنا من البريد الذي يتوقّف في لندن في فناء إسكوثيا أنّها تعيش في قفص من فضّة، في هيئة حمامة طاووسية الذيل، وهو ما ارتضته نفسها بملاحة، هي المنمنمةُ والمليَحةُ. ولا دلفينا دِ تولِهْ، وهي عجوز متقلّبة المزاج تقول إنّها لن تتركها تعود، ساخرة من وحشتها، ما لم يكن هناك دفعٌ مسبق لاثني عشر محصولِ لوز من بالرمو وألفِ براثا من الحرير المُرسيّ، لقد غالت في ارتهاننا لها حتى إنها صارت تلميذة تتعلم بنا. فكّرنا في سكّ هذا الكم من الذهب السريّ، وقد جئنا إلى ميراندا للاستشارة في هذا الأمر، فنحن لم نكن نعرف رمزَ تولِهْ الحقيقي ولا السلاح الذي يضعونه هناك على صليب النقود.

راحت الدموعُ تنفر من عيني ذلك الأمير باريس وأتباعهِ الذين راحوا بدورهم يذرفونها أنهاراً حين رأوه يبكي، لكنّ هذا لم يمنعهم من قضم الكعك، الذي كان من سانتا كلارا، وغطّسته مولاتي دونيا خينبرا بالعسل.

- الرمز الحقيقيّ لتولِهْ -وضّح دون مِرلْين-، هو غرابُ سفينة والأسلحة هي أزهارُ زنبق فرنسا، التي وصلت إلى تلك العائلة عبر جدّة

كان لها ابنٌ بالسرّ من فرنسيّ غرق على شواطئ تولهْ، وكان نصفَ موسيقيٍّ وكوّاء بالنشا في بلاط فرساي، وكانت تلك الجدّة، ليدي فوغ قد تبنّته ومنحه أهلُ تولهْ لقب الأمير دون سْكارفلي وهو جدّ لا دلفينا التي تحكم الآن، وتدعى ميس سبّيندل. والعملة المتداولة في تولهْ ليست ذهبية، بل من العنبر الكهربائي فالذهبُ هناك مثل الحديد هنا ليس أكثر بالنسبة إلى قيمته. ليقُلْهُ لسموّكم قزم بلفيس، الموجود هنا وذهب إلى تولهْ ليعملَ ساقياً حين أخذوا ابنةَ دونيا كارولينا إلى هناك.

احمرّ القزمُ وفَقَدَ كلَّ عجرفته واختبأ خلف مولاي بينما نهض الجالسون على الصندوق واقفين حين سمعوا بتلك المعلومة ومدوا أيديهم إلى سيوفهم التي كانت على خصورهم، لكنّ الأميرَ دون بّاريس هدّأهم قائلاً بكثير من النفوذ:

- ليس للقزم أيّ ذنبٍ في هذه القضيّة، فقد قام بهذه الرحلة من أجل المال تماماً كما قدّم لنا الآن من أجل المال خدمة بريده وكخادم لابنة دونيا كارولينا كان رهن الإشارة ومؤدَّباً، فأنا أعرف أنّه على بعد فرسخين من لندن كان يسير في حرّ النهار الذي حلّ بصيف تلك السنة في إنكلترا، وقد اشترى لسيِّدَتِنا من جيبه "توتي فروتي"

وانتهى بكلامه وفصاحته الخطابية العالية إلى تهدئة الجماعة. راح دون باريس يبكي ويبكي معه أتباعه حين أعدنا لهم مع بزوغ الفجر سلةَ التفاح بالاحتفالية ذاتها التي استلمناها بها منهم وخوسه مع المصباح والعصا ومولاي بمعطفه المزدوج والقزم وقبعة قشّه بيده وذهبت لآخذهم إلى لوس كابوس وكان النهار قد طلع وسكن العالمَ حين أطلقتُهم بين الصخور ومرّوا عبرَ شقّ في الصخرة الكبيرة من هذا البلد إلى الحقول في الأسفل. أحزنني دون باريس هذا العاشقُ، بشاربه الصغير وعينيه

الصريحتين، وإذا كانت السيّدة الأسيرة بحجم الحمامة طاووسيةَ الذيلِ كما كانوا يقولون، فلا شكّ أنّهما سيكونان زوجين سعيدين. حين عدتُ إلى ميراندا كان مولاي بانتظاري في البوابة.

- إذا ما أصرّ سكّان باطن الأرض هؤلاء على سكٍّ عمودِ الذهبِ نقوداً -قال وهو يُساعدني في إدخال البغلة- فأنا واثق في قرارةَ نفسي أنّ دمارَ العالم سيصل من كامبري إلى موندونييدو.

- وما هي قصّة تلك العائلة الأخرى؟ -سألتُ.

- مملكة التحتاني، يا عزيزي فليبٍّ مقطّعة مثل مملكة الفوقاني وهؤلاء الذين جاؤونا اليوم هم من الأَمّة المسيحيّة، أقارب الكلدانيين وليس لهم من عمل منذ أن وُضعوا في أعمق الأعماق غير البحث عن الأفعى سماريس، التي بيضُها بحجم رأسك، عذراً منك، وتحتفظ بمادة جوهرية يُصفونها بعرف الديك ومن يشرب منها ينمو، وإذا ما شرب منها شعبُ حبوب الدخن هذا سيصبح في العالم المفتوح شعبَ عمالقة. ومن كثرة ما حفروا في الأرض وقلّبوا في كهوفها، بينما الشعب الكورنتيني يحتفل بسوقٍ سرّي، التقوا بحرّاسِ الكنز الذين يتخذون هيئة كلابٍ صغيرة ويضعون في القلنسوة ذيلاً معوجاً مثل الذي في اللّوحات الفلامنكية. وسخر منهم الكلدانيون وهكذا نشب الخلاف بين الطرفين. والآن حين يعلم الكورانيون بأنّ كلدانياً خرج إلى سطح العالم يطلون هم أيضاً، ويجعلونهم بحيلهم التي يقومون بها يضعون الطريق ويُنسونهم الأوامر المعطاة لهم، وحدها الجلاجل والأنوارُ وذكر أذنابهم المجعدة تجعل هؤلاء الشموسين ينكمشون. الآن وقد أصبحت متنوّراً إلى هذا الحد تستطيع أن تتقدّمَ إلى امتحان الجغرافيا السريّة في ساغرِس، لكن من الأفضل لك الآنَ أن تستلقي وتنام فغداً يومٌ آخر وهناك زيارة مهمّة.

عروس البحر اليونانية

عندما استيقظتُ كانت الساعة قد تخطّت الثانيةَ عشرةَ وقد وُضِعَ طعام الإفطار على المائدة وكنت معجباً جداً بمرق القرع الحلو الذي كانت تصنعه السيّدة مَرتِلينا في أيام الخريف، ومن كثرة ما كنتُ أحبّه كنتُ أجدِّدُ الصحنَ. قضيتُ ساعةً في المطبخ أحكي لأهلِ البيت قصّةَ دون بّاريس وسَبيَّةِ تولهْ، بل وكنتُ سأتابع رواية قصّةٍ أخرى لو لم يصِحْ لي السيّد مولاي، خاصّة وأن حبيبتي مانولا كانت تقشّر كستناءً بجانبي ويبدو أنها كانت توقظُ عندي الكلامَ بنظرتها الحلوة والمفاجأة. كما يبدو أنّه كان عليّ أن أؤلفَ لها شدوَ شحرورٍ، خاصّة حين يُغازل هذا العصفور الصادحُ أنثاهُ بتوشيحِ غنائه... هرعت للأمر وكان دون مرلين مع خوسهْ دِل كايرو يُحضّران وسطَ الحجرة حوض السحلب الذي كان نصف برميل فالدرايني يتسع لاثنتي عشرةَ جرّة وجاءت للمساعدة خيّاطةُ باثيوس، التي بدأت تعلّق بالبرميل تنورة بِطَيّاتٍ من قماش براق جداً ومزهر بالأخضر والورديّ. نزلتْ مولاتي دونيا خينبرا لتُشاهد ذلك العمل، وعندما وضعنا أنا خادمكم وخوسهْ دِلْ كايْرو ماءً حتى منتصف الحوض، سكبت السيِّدةُ فيه دفقةً من عطر بدا لي أنّه عطر قرفة. كان دون مرلين فرحاً وحالماً ويكتبُ أرقاماً على السبورةِ وقال لِدونيا خينبرا التي كانت تبتسم بدورها:

- لم يسمن أكثر من رطلين، في البرميل من الماء ما لا يسمح بأن تسكبي فيه ملعقةً واحدة.

عَرَفْتُ على الفور، ولم يكن هناك حديث آخر في ذلك المساء، أنّنا كنّا ننتظر حوريةً يونانية، اسمها دونيا تيودورا، ماتَ لها فيثكوند برتغاليٌّ كان صديقاً لها أرادت من حزنها عليه أن تدخل ديراً، كانت تملكُه تلك النسوةُ مغموراً في بحيرة لوثِرنا، وجاءت كي يتقدّم لها مولاي بدعوى أمام محكمة بونْتِ ماتيلْدِ في مدينة روانْ، التي تحكم في دعاوى هذه الأنابولينات ولكي يصبغَ لها حراشف ذيلِها بلون الحداد النبيل.

- لا تضع لها حضرتك حداداً أبديّاً -قالت دونيا خينِبرا لمولاي- فقد يخطر لها في أيّ يومٍ أن تندم وتجدَ في لوثِنا ذاتها عاشقاً جديداً.

- بهذا أنا مُنهمِكٌ -ردّ دون مِرْلين- إذ ليس من السهل أن تتخلّص هؤلاء النساء من البغاء حتى ولو تظاهرن بالتوبة. عَرَفتُ واحدة كانت تريدُ أن تُسمّمَ نفسها لأنّ صديقها مات، كانت الصوت الصادح الثاني في الكنيسة الرومانية، والسيّدة الحورية كانت تقول إنّها لا تستطيع أن تعيش من دون الثنائيّ الذي كانا يُشكلانه ومن دون المعكرونة الشريطية التي كان يُحضِّرها لها أيّامَ الآحاد. وأرسلت إليَّ رسالةً مكتوبة تطلب فيها شراباً مُذيباً، وعندما أجبتها بالرفض كانت تعاشر مساعد البحرية في هونفلور، الذي جاءها ببرغوث بحرٍ، ومنذ ذلك الوقت وحتى البارحة بدّلت أربعة خوليين وجميعهم مع الحقّ بتخريب فراشها، مع المعذرة. بل وحاولت معي ذات صيف ذهبتُ فيه إلى رمل كالايس لأستحمّ.

- ضحكَ مولايَ ودونيا خينِبْرا وشكلنا جميعاً كورساً وأمرت

السيدة مولاتي مَرْثِلينا أن تبرد النازلي في حوض البئر. كلّ عائلة ميراندا، كما أعتقد، كانت قلقة بسبب المستجدات.

وصل الركبُ ليلاً. جاؤوا جميعاً على بغال ضخمة، جاءت الحورية مسربلة بثياب الأرملة الحزينة ومعها فارسان، عرفت أنّهما وريثا وقريبا البرتغالي وخادم كان في حوالي الرابعة عشرةَ من عمره جاء على كفل بغلة الحوريّة يحمل مظلة كبيرة مفتوحة، راداً المطر عن السيّدة الحزينة، أخذَ خوسهْ دل كايرو دونيا تيودورا بين ذراعيه ونقلها إلى الحجرة وأجلسها على كرسيّ مولايَ، بينما السيّد ألمِيْدا البرتغالي، الذي كان رجلاً طويلاً جداً، كبيرَ وكثّ الشاربين الأسودين يُسلِّم على دونيا خينِبرا ودون مِرْلين ويعتذر عن التأخّر، الذي كان سببه أنّهم جاؤوا على ثلاث مراحل من براغ واضطروا لأنّ يبللوا الحسناءَ تيودورا لأكثر من ساعتين في نهر مينيو. نزعت هذه المستوية جيّداً على الكرسيّ أحجبةَ الحداد، بمساعدة خيّاطة باثيوس، وأقول لكم أصبحت صباحاً، إذا كان الربّ يرسل وروداً، أجملَ امرأة في العالم، وفي عينيها قطرتا ندى خضراوان. وعندما استوت في جلستها على الكرسيّ ظهر للنظر رأسُ ذيلها، وكان هلالاً وردياً من تحت التنورة الطويلة. إذا قلت إنّني ذُهِلتُ، فليس من الدهشة التي وجدت نفسي فيها.

- يا سيّدة دونيا تيودورا -قال لها مولاي بأدبٍ جمّ- ها أنتم في بيتكم، بيت ميراندا، حيث كلّنا آسفون جداً على أنّ حبّكم المخلص جداً مات في رمل السيّد البرتغال. هذه التي ترينها هنا هي مولاتنا دونيا خينِبْرا، أميرة بريطانيا، وهؤلاء أسرتي، وهذا وصيفي فِليبٍّ، الذي أضعه تحت تصرّفكم من أجل أيّة رسالة. وهذا البرميل المعطّر هو سريركم والآن

سأبدأ بتلبيةِ كل المطالب التي تريدون والصباغُ حُضِّرَ كي تضعوا ذيلَ حدادِكم المضاعف فيه.

ستسمعون صوتَ تلك السيّدة فائقة الحسن، التي كلامُها شدْوٌ! هناك عصافير شَدْوُها لغز، لكن ما من مقارنة ممكنة. كم هو محظوظ من يسمعها في الصباحات بدل القبّرة!

- ها أنا أراكم جميعاً حزانى على الطيب الذي فقدته. والحقيقة أنّه ما من حبٍّ كحبِّ رجلٍ برتغالي. مولاتي دونيا خينِبرا، سيّدتي، أقبّل يديك، وأنت يا صاحب السيادة، يا دون مِرلين، أحيّيكما وكاملَ هذه العائلةِ والوصيفَ المساعدَ الذي تضعونه تحت تصرّفي، كبيرةٌ هي في الحقيقة السرعةُ التي جئت بها إذْ عليّ أن أكون يومَ سان لوكاس مقصوصةَ الشعر في باب دير لوثِرنا.

ومرَّت وهي تقول هذا بيديها على الشعر الذهبيّ الطويل، وكان كمن يمرّ بالقوس على أوتار الكمان الأربعة حسنة الدوزان.

كانت من العجلة بمكان، ذهب الفارسان البرتغاليان إلى مائدة دونيا خينِبرا للعشاء، وبقينا أنا وخادمها في غرفة الانتظار، بينما راحَ مولاي يضع اللمسات الأخيرة على تحضيرات الصباغ. قالت دونيا تيودورا إنّها لا تُريد من العشاء غير قليل من سمك البازلي النيّئ تماماً، ومن العقبة غيرَ ملعقة من الملح وقدحٍ من مشروب القهوة الكحولي، وقمت أنا وخادمها، ويدعى تيوفيلوس، وهو يونانيّ أيضاً، بتقديمها لها في صينية فضّية وكانت من حين لآخر تبتسم لي بطريقة كانت من العذوبة بحيث إنّ قلبي كان ينقبض. وحين انتهت من تناول عشائها، أشارت إلى أنّه ربّما ستكون أكثر راحةً في البرميل، حين خلعت تنورتها الطويلة وبلوزتها

المشدودة وظهرت السيّدة الحورية تماماً كما تُحكى تلك الخدع الجميلةُ في الحكايات، كنتُ لا أعرف إلى أين أنظرُ. ثمَّ إنّها كانت المرّة الأولى التي أرى فيها عاريةً ومع أنّني لم أكن أريد فإنّ عينيّ مضتا إلى تلكما النهدين الأبيضين والسعيدين، إلى سرّتها الوردية، وشرايينها الصغيرة الزرقاء التي تقطعها. لا بدَّ أن تيوفيلوس كان معتاداً، لكنّ ذلك كان بالنسبة إليَّ عيداً بين السعيد والمخيف. بل واضطررت لأن أقترب مُقَلّداً تيوفيلوس، عساها تمرّ بيديها على كتفينا، وقامت بحركة ظريفة كي تُدخل ذيلَها في البرميل وترتاح. دائما وكلّما تَذكَّرْتُ هذا المشهدَ أشعر وكأنَّ ذلك الدفء الذي كان يشعّ منها يُدغدغُ جسدي. وكان من الملاحة والحشمة، كما أعتقدُ، أنّها ما إن دخلت في البرميلِ حتى وضعت عليها دثاراً من الأستراخان غطّى كلّ ذلك الحُسن.

وصل مولاي ومعه الكتابات جاهزة وكانت ملفّاً موجّهاً إلى محكمة بونْتِ ماتيلدِ، استعادةِ أحفادِ عالمِ نباتات من جِنوى، وشهادة إيمان مسيحية، ولم يكن ينقصها غير توقيع دونيا تيودورا، التي وضعته مُذَيّلاً جداً وأضافت إليه باللاتينية ما تلاه عليها دون مرلْين:

- نحن الحوريات جميعاً -قالت لمولاي -لنا الخطُّ ذاته لأنّنا جميعاً نتعلّم في مدرسة سهول إيتورثايتا.

وبما أنّ ساعة الصّباغ حانت ناولنا دونيا تيودورا مقعداً إلى داخل البرميل بحيث إنّها بالجلوس عليه لا تغمر المياه غير الذيل الأحمر وبينما نحن في هذه التدابير أمعنتُ النظرَ خبثاً وفضولاً في دونيا تيودورا فرأيت أنّه ليس لها سرّة. رتّل دون مِرلْين ورنَّمَ على الماء بلغةٍ فعْلاً لم أفهم منها كلمةً وسكب على الفور غبار ذهب مُكَبْرَت وأربع خلطات من

قشر الجوز وخلاصة البقّم الأسود وزبدة الطرطير وخفقها بقضيب الفضّة ساعةً واعتبر بعد هذا بينما هو يلقي بقبضة من الملح في الصباغ أنَّ الأمر منته.

- سيكون -قال لدونيا تيودورا- أسودَ برّاقاً، يسمونه في إيطاليا "غراب نابولي" وعلى حافّة كلّ حرشفة خيط من ذهب لامع. منذ أن مات دون أماديس ولبست دونيا أوريانا الحدادَ الدائم لم تُشاهد تعزية بمثل ذلك الجلال في العالم. من المناسب الآن أن تقضي الليلَ كلَّهُ في الصباغ وفي الصباح تستطيعين أن تُغادري في طريقك إلى مدينة لوثرنا الكريمة.

أمرت دونيا تيودورا تيوفيلوس أن يعطي مولاي كيساً جاءت فيه بنقود رنّانة.

- أعرف أنّني لا أدفع مقابل كلّ هذا المعروف الذي قمتم به تجاهي في هذا البيت، لكن في هذا الكيس فلورينات مشغولة بالمخرطة، وهو كلّ ما تبقى لديَّ من ثروتي القديمة، التي لم أكسبها بفضل هذا الجسد السهل، بل ورثته من ابنة عمّ لي حفيدة كاردينال روما والتي سمعتم عنها، لأنّ عمّها منحها مياه التيبر حصرياً.

شكرها مولاي على الهديّة واستلقى تيوفيلوس على الصندوق كي يأخذ غفوة وذهبنا أنا ومولاي كلٌّ إلى فراشه بعد أداء تحية الاحترام للحورية الشهيرة. وأكذب إن قلتُ إنّني استطعتُ أن أنامَ في تلك الليلة من تلك الحمّى المتواصلة والمقلقة التي حلّت بجسدي، شعور مجنون عضّني أياماً طويلة، وحتى الآن وأنا عجوز، أسهو أحياناً وأعود لأنّه يبدو لي أنّني أسمعُ في الماء ذلك الكلام الصادح الذي كان لها، وبما يشبه الشعر أسأل نفسي مجنوناً وساخراً من ذاتي أحياناً: ماذا تريد مني، يا حبّ؟

لم يكن الصبح قد انبلجَ حين كنتُ جاهزاً والكمّة الجديدة في يدي ودونيا تيودورا بثيابها، لكنّها ارتدت تنورة مفتوحة من القماش المريني تسمح للمرء بأن يرى من الخصر وحتى الهلال الأخير، الذيل الظريف، المصبوغ بلون الحداد المضاعف، الموشّحة حراشفُهُ ، كما قال مولايَ، بخيطٍ من الذهب اللامع كان يناسبها تماماً. والسيّد ألمِيْدا وصاحب السيادة نوفاس قد امتطيا بغلتيهما وخوسهْ دِل كايرو ومولاي ساعدا في ركوب دونيا تيودورا على بغلتها وساعداها على طيّ الذيل وصعد تيوفيلوس إلى الكفل ومعه المظلة لأنّها كانت ما تزال تُمطِر. أدّى البرتغاليون حركات الاحترام البرتغالية المعتادة، وعادت دونيا تيودورا لتصدح بالشكرِ والوداعِ الحزين وخرجت دونيا خينبرا إلى الشرفة لتلوِّح مُوَدِّعةً بمنديلٍ مطرّز. انتبه مولاي حين ذهبوا إلى أنّني بقيت محزوناً قليلاً وأن بعضاً من خيطِ خداعِ الحورية كان يلتفّ حول عنقي.

- اهدأ، اهدأ، يا عزيزي فلِيبّ -قال لي وهو يربت على ظهري- لا تصاد أسماك التروتة بحِبالٍ ضعيفة، وباكورات الفضيلة هذه، ما الذي سيطلبنه من غلام مثلك غير حياته؟ لا أريد أن أراك مأكولاً من الأسماك على شاطئ من شواطئ أروسا.

- إضافةً -أضاف كارلوس دِلْ كايرو، الذي يتكلّم دائماً عن معرفة وحكمة- إضافةً إلى ذيلها الغليظ فإنّها إذا كانت امرأة كباقي النساء لا بدّ أنّ ساقيها بدينتين.

- قال وبصق كأنّه يشمئزُّ. وأنا انفجرتُ بالبكاء.

الرحلة إلى بآثيوس

استعدَّ مولاي للسفر إلى بّاثيوس حيث يقيم في ذلك النزل صديق له طريحَ الفراش جاء لزيارته وكان سيّداً سويسرياً يتاجِر بكرات الثلج، وجاء بها جميلة جداً في الحقيبة، كما سنرى. وحصل أن أصابه في الطريق تعرّق وفكّر أن كوباً مضاعفاً من الروم سيجعله جديداً مثل عملة خرجت من الراسوم تواً، لكنّ الحمّى استمرّت متقلّبة وبقي أسبوعاً في الفراش. سألني دون مِرلين ما إذا رأيتُ ذات مرّة كيساً من الثلج أو بلداناً في لوحة ينزلُ فيها الثلج وقلت له لا، وإنّني لم أرَ الثلج إلا في البرّية، اللهم ما لم يكن في "مسرح بالنسيانو المثالي" في سان فرويلان لوغو، حيث كانوا يُقَلّدون الثلجَ بالطحين حين كانت تعوي الذئابُ في باب الشريف دون كروثِسْ الذي كان يموت بالرعشة في الوسط في منتصف المسرحية ولم يُعرَف حتى النهاية أنّ حفيدةً له سَمَّتْهُ.

إذن سأُقَدِّمُ لك هذه الرحلة إلى باثيوس هديةً -قال لي دون مِرلين- وسأقول للسيّد سيمبّلوم أن يُريكَ كلَّ ما عنده.

في الطريق راح سيِّدي، الخيّال العظيم، وأنا أتقدّمه بثلاث خطوات كما أُمرتُ، يحكي لي أنّ ذلك المسيو سيمبّلوم كان ساعاتيَّ غرفة السادة دُوَقَة سابويا، وأنّهما أصبحا صديقين حين ذهب دون مِرلينْ إلى تورين

كي يفكّ السحر عن الدوق فيليبِرْتو العجوز، إذ دخل في جسد سموّه شيطان حائكٌ راح يحيك ليلاً ونهاراً والدوق لا عمل له غير أنه يبصق ويتغوط جذاذاتٍ ملوَّنَةً، كان يحيكها الخبيثُ في حجرات بطنه. لقد طردوا الشيطان، لكنّ سيّدَ سابويا بقي رخواً جداً من جراء العمليّة، أصابه بعدها بقليل شلل ثمّ مات. والدوق الجديدُ لا يُحب فنَّ الساعات، فكل ما لديه من وقت كان يبدو له قليلاً للعب بالورق. وسمح للسيّد سيمبّلوم بعد أن خسّره آخر الدفعات وإرثَ الدوق فيليبِرْتو، الذي هو كرم عنب وطاحونة هواء في ألِسّاندريا دلاّ باليا، أن يلعبَ لعبةً يسمونها "جولِبّ أو كارِّهْ" والجميع في البلاط كانوا يعرفون أنّ السويسري سيمبّلوم لبّى تلك الدعوة لِلَّعِبِ بالإكراه، فهو لم يكن قط صديقاً للورق. كان سيمبّلوم عجوزاً وبلا نقود، فكرّس نفسه لصناعة كراتِ الثلج بأجهزة تعمل بالنوابض وكان الآن في طريقه إلى البرتغال ليبيع منها بضع عشرة كرة لمطران لامِغو، الذي كان يُجنُّ بها إلى حدّ أنّه كان يعرض واحدة كان قد اشتراها في روما وتُمثّل ولادةَ بيت لحم على منبر الوعظ ليراها أبناءُ رعيّة كنيسته الذين كانوا يبكون وهم يرون أنّها تُثلج بكثافة بينما الطفل عارٍ في المعلف.

كنّا في هذه الأحاديث حين وصلْنا إلى النهر واجتزته قافزاً فوق حجارة العبور، البالغ عددها سبعة عشرة حجراً ومولاي يخبّ في المخاضة، وكلبنا لوثِرو مسبباً ألف زبدٍ وزبدٍ بسباحته. كانت الضفّة كلّها مزروعة بالتفاح والوادي كلّه مرج. لم تكن الساعة قد بلغت الحاديةَ عشرة بعدُ حين صرنا في باثيوس وعند الدخول من أبوابِ نزل ليانيو، الذي فيه دالية تشغل كلّ الشرفة المشمسة، خرج النزيلُ ليُسلّم على

مولايَ بكثير من الودّ وبسؤال دون مِرلين عن المريض أجابه ليانيو أنّه لا يراه في حالة حسنة وأن الحمّى بحسبِ طبيب أرْنوبسْ الشعبي، جرت إلى نبضاته فما عادت تتوافق، وأنّ آخر نزيف أدخله في غَشيةٍ راح يخرج منها تدريجياً من خلال مرقٍ بالنبيذ الشريشي. كان ليانيو رجلاً قبيحاً، بديناً كما لا أحد، وله شاربان على طريقة القيصر، وكان في الحقيقة يربيهما كي يبدو جدّياً، هو الساخر الأكبر والحالم الأعظم في العالم فما إن يشربَ كأسين زيادةً حتى يبدأ بتقليدِ صبيّ النزل فينقلب الناسُ على ظهورهم من الضحك. صعد بنا إلى حجرة السيّد سيمبّلوم، وكان السويسري لا يكاد يشهق شهقات الموت ويتصبّب عرقاً تحتَ تسعِ بطانيات، لا يُطلُّ من تحت الملاحف غير أنفه المسنون وقد غطّى نصفَ صلعته جورب أبيض مخطّط بالأزرق، فبدت قبّعة ظريفة. اقترب مولاي من السرير، بحث تحت الملاحف عن إحدى يدي السويسري وقال له صباح الخير (بونجور) بلفظٍ واضح وسأله: "ما الجديد لدينا؟" وتأخّر المريضُ دقيقة في فتحِ عينٍ واحدة، أمعن نظره بسيّدي، وأجابَ بصوتٍ راح يبحثُ عن الهواء في مزارعِ حورِ العالم الآخر:

- آه، يا مِرْلين، آهٍ، يا مِرلين، هذه ستقضي علينا!

راح مولاي كطبيبٍ مجاز يجسُّه، أخذ حرارته بحجر السربنتين، جعله يُخرج لسانه وقطر له قطرة ماء الوقفة في الأذن اليمنى وتابع كلا النبضين هنيهة ثم بعد تفكير دام ربعَ ساعةٍ بدا لي من خلال تعابير وجهه أنّه وقع على سرٍّ ذلك المرض.

- كلّ هذا الألم -صرّح- مصدره أنّ نقاط الحرارة انتقلت إلى الأمزجة، فالحمى التي أصابته رهيبة، والآن ليس من الممكن جعل حالتهِ

تستقرّ ولا جعل السوائلِ الداخلية تعود إلى مستواها الطبيعي. الأمزجة في الجسم طبقات، تماماً مثل الشحم في لحم الخنزير، أو الزيت والماء في كأس القنديل. يحدث أنّه إذا أصابها خللٌ أو اختلطت فإنّها تُرخّي الدواخل. بل وأكثر من ذلك فإنّ هذه الحالة صعبة، لأنّ هذا السيّد سيمبّلوم كان رجلاً متهوِّراً في عصيانه للوصية السادسة وقليل هو الخمر الذي يحتفظ به في جلده.

كان مولاي قد جاء معه بكيس الأدوية وحضّر ورقةَ روحِ السين ونبيذاً مطهراً بحسب لِي روْي وكلّف صيدلية مِيْرا من أجل حفيد ليانيو بترياق رئيسي وحبوب عسل مسكِّنة ووثق بأنّ تلك المواد الخاصّة وكحول الكينا التي كان يستهلكها ستُقَدّم للمريض المساعدةَ التي يحتاجها.

- كلّ هذه النفقات على عاتقي -قال دون مِرْلين- فهذا السيّد السويسري صديقي العزيز

بروح السين وربّما أيضاً بدغدغة كلماتِ مولاي الحميمة، استعاد السويسريُّ نفسَهُ قليلاً فظهرت عثنونتُهُ الشائبة من تحت طيّة الملحفة ومضى مولاي وفتح الصندوقَ المزين بالحديد وكان عند قدم السرير وفيه المفتاح وراح يُخرِجُ منهُ كرات الثلج الملفوفة بأقمشة ملوّنة. يا له من عيد، يا صديقي!. أمر ليانيو باستدعاء زوجته وابنته والحفيد الصغير وجاء مع هؤلاء أبناء الحدّاد ثمّ الحدّاد وزوجته، التي كانت من وراءِ ظهر الكنيسة ابنةَ غندورِ هوموسو القديم، وأنا، وفي كلّ مرّة كان يُخرج فيها مولاي كرةً كنتُ أخرجُ بها إلى الممر وأُريها لكلّ تلك العائلة، التي كانت تجلس على درج العلّية كي تحضر الحفلةَ. وكانت الكرةُ الأولى حارساً سويسريّاً من حراس البابا في نوبة حراسة، يحمل رمحاً رأسُهُ بلطة،

ويتـقدّم خطوتين صغيـرتين ثمّ يدور نصفَ دورة وسـرعـان مـا بـدأت تُثلِجُ والحارس المحمرّ يدخل المَحْرَس. الثـانيـة كانت راعـيـة مع نعاجها الصغـيرة في حقل، وكانت كرة موسيقى، والراعية تُغنّي وترقص، وعند نزول الثلج تفـتح الراعـيـة المظلّةَ فـتـتـجـمّع النعـاج حـولهـا. وكـان هنـاك كـرة أخـرى أعجبتني جداً وتمثل فارساً يعتمر قبّعة، يُغازلُ سيّدةً مرفوعةَ الشعر عند أسفل نـافذة وتُثلِج والثلج يغطي الفـارسَ وعندئذٍ تخرج خادمة إلى البـاب ويـدهـا مكنسـة فـتـكنس الثلج عن الغندور. أيضـاً كـانت تحـتـوي على موسيقى وقال مولاي إنّها تُسمّى: "الأرملة الفرِحة". لم يكن السيّد مرلين يتكلّم عن الموضوع وأنا كنتُ أحكيه للجمهور. وأخرى تمثلُ فـارسـاً على جـواده وكـانت تُثلِجُ، والجـوادُ بايونيّ جـمـيـلٌ جداً، يشقّ الثـلج بسـاقـيـه الأمـامـيّـتين. كلّ فنون سـقـوط وطيـران الثلج كانت في مـقـودٍ، وكـانت الكراتُ تُقرَن مثل الساعات. وعرضتُ أخرى تُمثّلُ قيثارةً تعزفُ موسيقى المسـاء وأخـرى تمثّل نـاسكاً يزيـح الثلجَ بمِسْحـاتهِ، فـتنبـجسُ من الأرض أزهارٌ حـمراء، وقـال مـولاي إنّه سـان غـوار ألبـينو بعـينه. وشـاهدنا كـرة صـيـادِ الخنازير البـرّية، والحـاجّ الذي يتـبـعـه ذئبٌ، وثـلجـة باريس عـام ١٨٨١، وإيطاليّـة تضع قـبّـعـة وتخـرج للنزهة وتبدأ تُثلج ومـا إن تدخل إلى البيت حتى تنقشعُ الدنيا وكذلك شاهدنا الثلجة في جنازة إمبراطور النمسـا، حيث امـتـلأ تاجُ الأسقف ثـلجاً، وأخيـراً شـاهدنا كـرة أخرى مع موسيقى محوّلة إلى فالس، تنغلق على فرنسيةٍ، كلّما اشتدّ سقوط الثلج خرجت إلى باب البيت ورفعت تنورتها مظهـرة ساقاً جميلة جداً بجورب أسـود وربـاط أحـمـر، وكنّـا بانتظار أن ينتـهي قَـرنُ هذه الكرة حين قـال السيّد سيمبّلوم شبه شاخرٍ وكأنّه يخرج من حلمٍ:

- إذا متُّ خارج بيتي، فأنتم شهودٌ على أنّني أريدُ أن يقبروني مع هذه اللعبة بين يديَّ وبالضغط على البصلة في الأسفل يدوم قرنها سبعة أيّام.

أشار عليه مولايَ أن يُفكِّر بأشياء أخرى، فهو ما زال سيضحك ساعة مظهراً نفسه للسيد أسقف لامغو، وإذا ما قرعت نواقيس الموت، فخَيْرٌ له أن يراجع حساب روحه من أن يغمزَ بعينه فخذَ خنزيرٍ فرنسيٍّ مُدخَّن. وصل من مِيْرا حفيد ليانيو ومعه الترياق الرئيسي وحبوب العسل المسكّنة وعالج السيّد مِرلين السويسريَّ، الذي تركناه في قيلولة قصيرة بينما نحن نأكلُ. حين انتهينا من تناول طعامنا وكان هناك حشد كبير من العائلة جاؤوا ليشاهدوا مضمضة فم مولاي وغسلي ليديه كما لو أنهم جاؤوا ليُشاهدوا كرةَ الثلج. صعدنا إلى جانب السويسريّ وكان مستيقظاً وعيناه تشتعلان حيوية ويتسلّى بتمشيط غنثونته.

- يبدو لي، أيّها السيّد الساحر أنّني أتعافى -قال لمولاي.

- أيضاً أنا مشغول في هذا وليس معجزة أنَّ الترياقَ الأساسي له هذه الميّزة فهو إمّا أن يحمل المريضَ ولمرّة واحدة من ظواهر العالم أو أن يشفيه فوراً. ثمّ إنّ الفضل للسيّد الذي وصل في الوقت المناسب.

كلُّ هذا وأشياء أخرى قالها مولايَ بالكلام الفرنسي وأعطاه حسب ما عرفت أونصة كي يتابع طريقه والسيّد سيمْبّلوم كرّم السيّد مِرلين بكرة ثلجٍ فأمرني مولاي الدون باختيارها وأنا فضّلتُ كرة الفارس الذي يجتاز الجبل لكثرة ما أحببت الكُميت وموسيقى الجلاجل التي كانت للكرة في الصندوق ذي القوائم. وبما أنّ الليلَ يحلُّ بسهولةٍ في الخريف فقد قرَّر السيّد مِرلْين العودةَ إلى ميراندا، عابرين البونتيغا نهاراً فالذئبُ

كان قد بدأ يعوي في تلك الوِهادِ بين سان لوكاس وسانتوس وأمرني أن أركب خلفه على طريقة النساء وخببنا بهمّةٍ بدا خلالها أن المساء يطول.

- نبدو -قال مولاي - رئيس دير مِيْرا حين كان يذهب ليحرِّر بعض المحاكمات في لوغو حيث كان يحمل خلفه دائماً فتى غراً مثلك على طريقة النساء، كي يخفي شعره الشائب.

لم يكن قد حلّ الليلُ بعدُ حين عبرنا بالقرب من بيت راعي كنيسة سَيْكسو ، لكنّ أنوار منزلنا في ميراندا كانت مشتعلة وحميمة.

أن أضع تقريراً إحصائياً عن العائلة التي مرّت بميراندا، محاولاً العمل بعلم سيّدي مِرلين، أقول هذا يعني أن أحصي، في صباح واحد حبّات رمل البحر، لم أشغل نفسي بهذه الطبخة بل بذكر لحظات سعادتي، حين كان هذا الجسدُ الضامر كأس الفتوّة الواثقة. ميراندا بالنسبة إليّ وكل ما كان يدخل ويخرج من تلك البوّابة هي بيضةُ عيدِ فصحٍ أو كرة ثلجٍ بنابضٍ كتلك التي كان يحملها السيّد سيمْبّلوم تقدمة لمطران لامِغو أكثر مما هي ذكرى ماضية. الأيّامُ الماضية، الغيومُ التي تُغطّيها، الأفكارُ العديدة التي تروح بي وتغدو والحياة التي أجدها ساكنةً فيّ، أستطيع أن أقارنها بالثلجِ الذي يسقط وديعاً ويتحوّل إلى بساطٍ لهذا العالم فيُغطّي الحقولَ والطرقاتِ والمروجَ والبيادرَ ويعملُ وجهَ أرضنا سهلاً فسيحاً مماثلاً. لكن تقفز أحياناً شمسُ ذكرى شبابٍ مُشعة فتُذيبُ الثلجَ في مكان ما، كما لو أنّ عابراً مجهولاً يُشعل ناراً صغيرة في وحشة العالم فتذهب أنت وتتدفّأ لساعةٍ على حبّ جمرها. *ذكرياتٌ، ذكرياتٌ، ذكريات!*

الجزء الثاني

ذلك الطريق
كان شحاذاً عجوزاً

١

تشبه الطرقُ خطوطَ الفلاحة، هكذا وكما تُعطي البيادرُ الخبْزَ كذلك تُعطي الطرقُ الناسَ، النُزُلَ، اللغاتِ والبلدانَ، يجلس المرءُ على حوافّ الطريق ليجمعَ المحصول، أو يُسافرُ عليه. هذا الطريق الذي أحكي عنه اليومَ، يبدو لي مثلَ شحّاذٍ عجوز، على الرغم من أنّ كل مارّ فيه يُجدّده ويُثير في الطريق المكسّر والمغبرّ الصِّبا الأولَ. من ميراندا أرى قطعةً من الطريق الفرنسي يبحث عن مخاضةِ النهر. يهبط من تلٍّ مُتَوَّج بأشجار الكستناء ويُسارع خطاهُ في مرجِ الشيلم المزهرِ والذرةِ النابتة باتجاه الضفّة؛ موكبٌ طويل من العائلاتِ صديقةِ الماء: الصفصاف، الحور، والحور الأسود، حيثُ حين يتوقّف الشحرورُ عن الشدو عليها تبدأ القبّرة تغريدَها. بعيدٌ الجسرُ الذي يسمونه بالروماني، يمرُّ النهرُ على عشرين صُوةٍ طريق حجرية، لا يُستغْرَبُ أن يُبْعدَ المسافرُ عنها الحمامةَ المُطوَّقة التي تشرب من هناك. الضفّة الأخرى هي أرض أردوازية وعرة ومقشورة، وعلى الطريق أن يشقّ ممراته بمشقّة حتى يُتوّج ذلك السور الهائل كي يتمكّن لاحقاً من أن يمتدَّ سعيداً في سهل بيْرال، حيثُ المراعي البضّة المفتوحة وكورسُ أدغالِ السنديان القوية ورشاقةُ أشجار البتولا تتمرأى مرتعشةً في الغدران، كنتُ أرى من شرفات بِلْفيس دخانَ مدخنةٍ بعيدة:

كان ذلك نَزْل تِرمار، حيثُ ذهبتُ، قبل أن أُوقفَ نوتيّاً من باثيوس - وستكون هذه شَلَلاً أخرى يجب لفّها، ذكرياتٍ أُخرى يجب تسخينها، مرايا أخرى ينظر فيها المرء إلى نفسه- لمعرفة الناس الذين يروحون ويغدون في هذه الحكايات، في هذا الطريق.

كانت تِرْمال في البداية مستشفى للحجّاج، برعاية السادة رهبان دير البرناردووين المجاور، الذي ما تزال أسلحته فيه محاطة بالبزاق. هُجِر بعد أن غادره الرهبانُ وكان أنقاضاً حين سقفَهُ السيدُ موران وفتح هناك دكاناً وقدّم نزلاً، مستفيداً من أنّه كان عليهم تبديل جواد عربةِ لوغو. سموه وقتها نزل القشتالي، الاسم الذي ما زال يحتفظ به حتى الآن، ومع الزمن ولأنّه كانت تتمّ فيه، في الرابع عشر من كلّ شهر، عمليةُ تسليم المواشي، نشأ سوق الرابعة عشر وهو سوق مشهور جداً ويقام في غابة بهيجة جداً ومعظم الحقل، كما هو معتاد في هذا البلد، مسور بالغار ويوجد نبعان غزيران. ذهب السيّد موران ليبحث عن زوجةٍ له في بلده وتبع الأولادُ الثلاثة الذين أنجبهما الزوجان طريقَ أبيهم. بنى لهم برتغاليّ بيوتاً جديدةً بجوار النزلِ العتيق، فاستقرّ كلّ هؤلاء الرُّحل في تِرمار، التي تعتبر الآن بلدة. لكنّني ما زلتُ أتذكّر أنّه لم يكن يوجدُ في ذلك المرتفعِ، صديقِ رياح الجنوب، بيتٌ آخرُ غير مستشفى الحجّاج القديم. دائما كان هناك في غابة سنديان تِرمار قيقب مُبكّر وبومة تنعق متطيِّرة. تِرمار! نبعا الحقل يُشكّلان جدولاً صغيراً لا يكدا يسمح بأن يعينوا صبيّاً لِطاحونته وكلّ عصافير بِيْرال، غالبيتها سمُّنات مطرية، كانت على موعد على سياج الغار. حين ذهبتُ إلى تِرمار معاوناً للدون مطران كريستو، كانوا ما يزالون يتكلّمون عن رهبانِ أيّام زمان، عن

الحجّاج الرحمانيين، عن السادة الكونتات المجانين، الذين كانوا يروحون ويغدون على صهوة غضبهم، عن معجزاتِ جارِهم سان كوسمِ دِ غالغان وأشباحِ النزل العتيق... يبدو لي أنّهم ما زالوا يتواعدون معي في البوابة ومعهم أسلحة ميْرا، في أعالي ترِمار هذه، أشباح حين تقترب تكتسي للحظةٍ لحماً وتتجمع مثل عنقودٍ حول جمرِ المدخنة القديمة التي نحتت عليها زهرة زنبق، حيث تتطاير حكايات الزمن الذي مضى لهباً أزرق وأحمر، وأصفر.

٢
القزم اليوناني

قـزمٌ ماتَ قـزمٌ قامَ -قـال دون مـونيـو، رئيـس الدير، وهو يُخـرج من قلنسـوته رجلاً صغيراً بطول شبرين يرتدي الزيَّ البرنـاردي، وجهُهُ مدوّر ووردي، شعرُهُ زغبٌ فـوق جبينه، عـيناهُ سوداوان وصغيـرتان تشـتعـلان حيوية، ظريف كلّه، بجسده الذي لدمية فلورنسيّة. وضعَهُ على الطاولة فقام بحركة احترام للرهبان والحجّاج الذين كانوا قد نزلوا في تلك الليلة من شهر أيار في النزل وراح يحكي بصوته النحيل، الذي بدا أنّه لجلجلٍ فضّي أكثر مما هو غناء بشريّ، قصّةَ قومه وتاريخَهم ودخولهم رهبانية ثيسْتِر.

- بالنسبة إلى ما هو معتاد من طولٍ في عائلتي، أقول إنّني أتخطّى الطولَ القياسي وأنا وأهلي نصلح خَدَماً لطواويس بطريرك القسطنطينية، بينما نساؤنا يصلحن لعمل مطرزاتٍ ما يُسمّونه في لا ليبانتيّا "غرزة أضنة"، ومعروف أنّها مشغولة من فراغٍ وخيطٍ يليه آخرُ ومرآةِ لؤلؤ شرقية. لي أخ يبلغ من الصغرِ حدّ أن قُمُّصَ لاس بلانكرِناس جعله يتنكّر بصورة شحرور، ينقر في عنقودِ عنبٍ كتلانيّ يوم عيد ميلاد سيّدتنا، وهو الوقت الذي يحتفل فيه اليونانيون بقطاف العنب. إنّ

انحدارنا من الأمراء السامانيين رأيٌ في غاية الجدّية، دوفِع عنه في كثير من الأحيان بكثيرٍ من الحجج، وهكذا نرى نحنُ بسبب شاعرٍ عاشق، يُدعى الفردوسي، شاعر الورود. هذا الشاعر العذب، الذي كان باستطاعته في عزّ الصحراء، وهو يتغنّى بجمالِ نبعٍ وبرودةِ مائه، أن يجعل البدوَ يرون في الهواء كؤوساً بغداديةً مليئةً بالسائل البلوريّ البارد، وقال وهو يتأمّل طفلين يلعبان ببرتقالةٍ في دمشق كما يلعبُ العشّاقُ بالقمر: يا ليتهم لا يخرجون من هذا النهار السعيد ومن هذا العمر البهيج. وهذا ما حدث فعلاً: بقوا بحجم الطفل وسعادةِ ذلك الزمن، وبتزاوجهم شكّلوا من عائلتنا أمّةً. وفي قلاقل زمنِ تذرّي مملكة السامانيين جاء أجدادي ليستقرّوا في أنطاكيا، حيّث تحوّلوا إلى المسيحية ومن هناك انتقلوا إلى القسطنطينية، لأنّ باسيليو أرادَ أن يتعرّف إلى تلك الجماعة التي تتسع لها مجتمعة قفّةُ تينِ إزميرية. اشتغلنا في البداية في بيزنطةَ بتجعيدِ لحية الإمبراطور، التي تُشتَغَلُ، كما هو معروف، على السلّم الموسيقي، وبتزيينِ خناصرِ الإمبراطورة والأميرات، وكان هذا نوع من الرهافة التي كان يمارسها أولئك السادة الإساوريون. كان هناك إمبراطورة،اسمها دونيا أركيبّاس، على أحدِ خنصريها رسمٌ يجب استخدامُ الزجاجِ المُكبّر لرؤيتهِ وكان يُمثّل الإمبراطورَ وحاشيتَهُ ذاهبين من القصر إلى مضمار الخيل، الشوارعَ والناسَ و"الخضر" و"الزرق" يهتفون، وكلَّ طاقمِ القصر بتيجانهم وعكازاتهم وحملةِ ذيول ثيابهم، وعلى الخنصرِ الثاني حفلةُ صيدِ التُدْرُجِ في لا كولكيدا ومعهم الصقور الإمبراطورية تطير فوق الغابة النارية في الخريف. لكن مع تغيّر الموضة جئنا لممارسة المهن الجديدة.

كان كلامُ القزم ظريفاً ومنمقاً مثلَ تلميذِ الفصاحةِ القديمة. أخرج من تحت وشاح كتفه كأساً من فضّة بحجم كشتبان وأغرقه في كأسِ رئيس الدير، الذي كان من الزجاج السميك المشغول وكان مليئاً بنبيذ بالدرِّيو الأحمر، هذا الوادي الذي كان يقبض فيه السادة برناردويّي ميرا الكثيرَ والكثير من نبيذِ مويّو، الأبيض منه والأحمر. أنعش القزم الصغير الاستراحَة وتابع القصّةَ:

- كان للأميرة ماكاريا، التي كنتُ أعملُ في غرفتها مساعدَ عازف ناي وهازاً للأرجوحة، فأرٌ أبيضُ صغيرٌ وظريفٌ جداً تُزَيّن رأسَ ذيلِه ثلاثُ نقاط سوداء. كان الفأر يقفز في كلِّ أنحاء القصر، يتركونه يروح ويغدو وحين كانوا يعتبرون أنّه ضاع ينادونني فأصفرُ له بطريقةٍ لذيذة وما إن يسمعني حتى يأتي من جديد إلى صاحبته، التي كانت ما إن تسمعني أصفر حتى تكفكف دموعَ عينيها الزرقاوين المذهولتين. حدث هذا ألفَ مرّة ومرّة وكان الفأرُ كما الأميرة تعتبرانه لَعِباً لطيفاً. لكنّ الفأرَ لم يهرع على صفيري في إحدى هذه الحفلات، طفتُ كلّ القصر مندهشاً. كنتُ أصفر له في قاعة العرشِ ذاتها حين جاءني من يخبرني أنّه رآهُ في الحديقة. خرجت وأنا أصفرُ إلى وسطِ الشقائق، رأيتُهُ يخرج من الأبواب، اجتزتُ وأنا أصفر المضائقَ واليونانَ وبما أنّه أتاني بريدٌ يقول إنّه رآه في موستار وفي سالسبورغ تابعتُ طريقي ودخلتُ إلى روما، حيث رأوه يعبرُ التيبر عبر الجسر حيث قلعةُ البابا. أنا نفسي رأيتُهُ في فلورنسا، في الساحة، بل وقام لي بحركة ظريفة من تحت ذيله، تبعتُهُ فاجتاز فرنسا وإسبانيا وعرفت من أخبار جاء بها بعض الحجّاج، الذين رأوه في قرص جبنٍ في بيّالون دِ كامبوس، أنّه قادمِ إلى القسطنطينية، وكانت فرحتي

عظيمة البارحة حين رأيتُهُ يأكل حبّة كستناء بجانب شجرة على ضفَّة نهركم. كان المسكين هزيلاً وشعره فقدَ البريقَ الذي كان يمنحه له مرهمُ حليب أميرتي الأرمني. صفرتُ له مرّة أخرى نغمة لَعِبنا، وأثناء اللعب قفز وانزلق وسقط في النهر فابتلعه الدوارُ الذي كان هناك بجانب الصفصاف. والآن أتعهّد أن أبقى هنا في بيتكم المُقدّس، خادماً لرئيس ديركم وسأكتبُ رسالة إلى باسيليو أعلمه فيها بالفاجعة وكيف أنّني لا أجرؤ على العودة ورؤيةِ عينَيّ سيّدتي دونيا ماكاريا تبكيان. ما اسم النهر الذي قلتم أنّ الفأرَ غرق فيه كي أضعه في الرسالة؟

- النهر -قال الأبُ رئيسُ الدير-، الذي ينبع من هنا بجانبنا نُسَمّيه مينيو وهذا الجزء من العالم المسيحي هو غاليثيا على بعد ذراعين من طريق سانتياغو.

جفّفَ القزمُ الصغيرُ دمعةً وعاد إلى مخبئه، الذي هو قلنسوةُ المطران ليُخفِّف من حزنه.

٣
وصيف أفينيون

- هذا السيِّد القزم -قال صبيّ كان هناك مشدوداً جداً إلى قصّة الفأر والقزم إلى حدّ أنّه ترك قطعةَ لحمِ الخنزير بالبيض تبرد في الصحن - حجَّ إلى الرسول سانتياغو دون أن يعلم، وأرى أنّ معظم الفراسخ التي مشاها كان حبّاً بما اعترفَ به لتلك الأميرة البعيدة، ذات العينين الزرقاوين، المدعوّة ماكاريا، وأنا أحجُّ من أفينيون البابواتِ عن سابق معرفةٍ من أجل أن أطلب من القديس أن يتركني ولو لمرّةٍ واحدة على هذه الضفّة من الحياة لأعودَ وأرى الوجهَ الشاحبَ لأميرةٍ أخرى بعيدةٍ، بعيدةٍ وجميلة جداً. سيّدتي هذه تُدعى أنغلور وتعيشُ في نهر.

الصبيّ الذي كان في دوار الثامنة عشر من عمره كان رشيقاً، فارعَ القامة، أسمرَ، له أخمص قدمِ رحلاتِ حجّ طويلة وشعرٌ مقصوص فوق جبهته على طريقة الرهبان خدمِ سان بابلو، كما يسمونها: "الخصلة الشاردة"، كان يرتدي ملابس فاقعة الألوان وسترةً سابغة حمراء واسعة جداً على الطريقة البروفنسالية وكان أنفه المعقوف كمنقار النسر يبرز في الوجه كبيراً أكثر من اللازم تقريباً، لكنه يملك في عينيه الرماديتينِ وفمهِ المفتوحِ والحالمِ ظرافةً. قال إنّه يُدعى فرانسوا وبالاسم السيّئ بيشغرو.

غالباً ما يأتي الحبُّ كلَمْحِ البصر. هكذا جاء حبّي في ليلة سان خوان وبالتحديد في ليلة العام الفائت. خرجتُ من خدمة الرهبان وصيفاً لسيّدٍ كاهنٍ قانونيّ من أفينيون، شغوفٍ جداً بالتنزّهِ ليلاً على الجسر، كما كان الحالُ في تلك الليلة إذ كان يتأملُ جريان النهر الضاجّ والمبرقش، ويسمع قرع الطبول على وجه الخصوص، وهي موسيقى كان كهنةُ أفينيون القانونيون، مثلهم مثل أقرانهم في تاراسكون، خبراءَ بها دائماً. كنتُ أسيرُ على بعد خطوتين خلفه والشمسية مطويّة تحت ذراعي، مثل شمسية حرير خضراء إيطالية، فلربّما ترك النهرُ في تلك الليلة لزنابقِ الضبابِ المُنَسَّلة أن تُزهر على سطح الأمواج، فالضبابُ الروداني كان يصيبُ السيّدَ الكاهن القانوني بما يُسمّى بالنزلة الملازِمة، التي هي أسوأ ما يمكن أن يُصيبَ الأنف من سيلان، وليست غريبةً على أبوَّتكم ولا مفاجئة لمقامكم تفاهةُ كلامي، إذ يكفي أن أقول إنّني من أمّةٍ بروفنسالية وعشقي مؤلم... وقف مولاي ليرى مهارات دولميّ كان يلعبُ بعلبِ نارٍ حين شعر بأوّل دفقة ضباب في ليلةِ عيد سان خوان، وأمرني بأن أفتح الشمسية، وعندما فتحتها سقطت من قلب الحرير، كما يمكن لوردة أن تسقط من أصيصٍ، غادةٌ رقيقة لا ترتدي غير حيائها، والشعر الذهبي الطويل وشريطٍ ذهبيّ في كعبها الأيسر. أدهشت كل من على الجسر وجعلت الدولمي يُطفئُ علبَ النارِ الصغيرة؛ وبدأ الناس يضحكون من مولاي الكاهن القانونيّ وهم يرون الغادة مزدانةً بجانبه، وراح سيّدي يشتعل غضباً وبدأ وهو يتقلّبُ على جمر الغضب، يُعدُّ قوانين بولونية ويصبُّ لعناته على الساخرين من تاجه، حين قامت الصغيرة وقد لفّت نفسها بدثار كاتب عمومي للصّ الكبير للبابا الذي مرّ مصادفة من هناك فطلبت الصمت وقالت:

- لا تسخروا. منذ سنة جئتُ كي ألعب في الضباب، واختبأت في مظلة السيّد الراهب القانوني لأرى مدى ملاءمة حرير نابولي الأخضر لي، تماماً في اللحظة التي كان يُغلقها فيها وصيفُهُ، فبقيت فيها أسيرة. واضطررت أن أنتظر لهذا العام كي أستعيدَ حُرِّيَّتي وشكلي الطبيعي، فليس لدي غير ليلة عيد سان خوان، وبقيّة الأيّام ماء يجري تحت جسر أفينيون. انظروا جميعاً إلى أنغلور، أميرة النهر!

- قالت هذا وعادت إلى الظلال والمياه تاركةً دثارَ الكاتب يسقط في الهواء مع الضباب. وبذهابها تركتني مُتيَّماً بها... يا ويلتي! ورحتُ أشمُّ خفيةً المظلّةَ التي تعطّرت بياسمين وماء ورد جنوى وأكتب على ورق ملوَّن أغانٍ أرمي بها إلى النهر، عسى أن تستطيع الأمواج العابرةُ، التي هي جزء سعيد ومزبد من جسدها، قراءتها، بل وبدا لي ذات مرّة أنّني أسمعُ كلماتِ أغانيَّ بين أشجار الضفّةِ وفي همس رودان المهيب.

سكت الوصيفُ كي يمخط بمنديلٍ أصفرَ من تلك المناديل الكبيرة، التي يسمونها "عشبتان" ويبقيني أنّه كان يكفكف دمعتين أكثر مما كان يمخط. وتابع بصوت مُوَشَّح بالتأثّر:

- كنتُ أُمضي يومي على جسرِ وضفَّتَي النهر، غافلاً عن شوكولا مولاي وأنسى أن أُلِّع له الأبازيم الفضّية، أبرّدَ له النبيذ، وأشحِّمَ له بندقية الصيد، وراحتْ جميعُ واجباتي تؤجّل للغد. وأنغلور لم تعد هذا العام في يوم عيد سان خوان! ربّما لن تعودَ أبداً. وخوفاً من أن يحدث مثل هذا الأمر المحزن جداً، أي ألا أعود لأراها أحجُّ إلى كومبّوستلا وفي طريقي أتلهّى بتعليم هذا الشحرور لحناً مؤلماً ألّفته في ساهاغون، في ذلك النزل، وحين يتعلّمه الشحرور جيّداً أطلقه، كي يصير معلّما

لشحارير أخرى فتصدح به جميعها معاً. وهكذا سيعلم العالم كلّه كيف يُحبّ ويبقى يُحبّ دائماً الوصيف فرانسوا، المعروف أكثر بـ بيتشِغرو في مدينة أفينيون القديمة في بروفسا، مدينة الجسر الجميل، أنغلور، أميرةَ النهر.

نهض الوصيفُ عن مقعده وخرج من المستشفى ليتمشّى في الطريق وحين رآه الشحرورُ المُدرَّبُ يذهبُ أطلقَ في الهواء غناءَ العاشق ذاك الذي كان نيتشغرو يُعلِّمُهُ له، وكان حقيقةً لحناً حزيناً.

- يُلاحظُ جيّداً -قال خيّاط من سمورة، كان أيضاً يحجُّ- أن الرُّجَيّلَ عاشقٌ وإلاّ لما ترك في الصحن شريحةَ لحمِ الخنزير بالبيض.

ما يزال يبدو لي أنّني في تلك الليلة من ليالي ترْمار وأرى كيف راح الوصيفُ بيتشِغرو يتنزّهُ تحت رذاذ المطر مائلَ الرأسِ والريحُ تُلعب بدثاره الأحمر.

٤
هوغونوت النهر

يُحكى أنّ المائدةَ التي كان يأكلُ عليها الحجّاجُ في ترما كان عليها لطخة من دمٍ لم يستطِعْ أحدٌ أن يزيلها أو يمحوها قط، وأنّها لم تكن تزول حتى بفركِ الخشبِ بالفرشاة، فالدم الطريّ كان قد اخترق سماكةَ لوحِ خشب الكرز كلّها، هذا ما سمعته من النجّار، المدعو السيّد فِلبِّتو، الذي يحترمه مولاي دون مِرلْين جداً وكان قد جاء إلى ميراندا ليعمل سلّمَ العلّيةِ الجديد ويطأ العليّة الخلفيّة. فالسيّد فِلبِّتو كان نجّاراً مشهوراً جداً، صنع دراجة ثلاثيةَ العجلات من خشب البلوط لمطران موندونييدو ذاك، والذي كان يوقّع باسم دون لويِّث بوريّكون وترك في الحرب الكارلوسيةِ الأولى المطرانيةَ وذهب إلى المقاطعات ليسمع مدافعَ الملك الشرعي وكان هذا المطران يجوبُ طرقَ بستانِ الأسقفية في تلك العربة ويحمل خلفه وقوفاً على محور الدولابين الخلفيين صبيّ الخدمةِ الذي كان ينفخ في صافرةٍ كي يُنبّه الأحفاد والخدمَ وأبناءَ العائلة كي يبتعدوا فصاحب النيافة يأتي بسرعة الطائرِ إلا قليلاً. دائماً كان هناك آراء متعارضة حول بقعةِ الدم تلك. كثيرون كانوا يؤكّدون أنّها العلامة التي تركها وراءه بريءٌ من بيت لحم خلالَ حجّهِ إلى سانتياغو وأنَّ علامة

مشابهة تركها بريءُ آخرُ في كارتوخا العظمى، بل وأخرى في بالرْمو، في بيتٍ من بيوت سان فرانسيسكو، وهذا البريء لطَّخَ بالدم الخبزَ الذي أكلَهُ والكأسَ الذي شرب منه بالإضافة إلى المائدة التي جلسوا إليها. ويشير آخرون إلى أنّه ربّما اغتيل هناك حاجٌّ مجهول ذاتَ ليلةٍ مظلمة وأنّه كان يجب إعلام لوغو كي يقوموا بالتحقيق في الموضوع. ولم يخلُ الأمر ممن رأى أنّها العلامات التي خلّفها اليهوديُّ التائهُ، ولا ممن يقول إنّه رأى ويشهد أنّ الصحيحَ أنّهم منذ أن صاروا يصنعون النبيذَ الأحمر في بلد الكتلانيين والمراغاتيين صارت هذه البقع معتادة على طاولات الحانات والنُّزُلِ. لكنّها كانت في الحقيقة دماً، دماً بشريّاً، وهذه هي قصّتها وقد رواها لي ذات مرّة نزيلُ غواسْ السابق، دون إرنستينو تخادو، حين مرّ في باثيوس في طريقه إلى لوغو، وكنتُ وقتها أعملُ مَراكبيّاً، كي آخذ فراريج بالخلّ هديّةً لقاضٍ مستشار من قومه الريوخي ذاته. دائماً كان ذلك الواعظ يذهب من أعلى إلى أسفل بحفلٍ فلفله الحار!

هناك سنة في فرنسا، هي سنة ألف وخمسمئة واثنتين وسبعين، وأؤكّدُ أنّ هذا كان من عمل الربّ لأنّه موجود عندي في كرّاسِ "الدفاع عن جريمة رابيّاكو" وكانت هذه هي الجريمة التي ارتكبها المدعو رابيّاكو درز فيها بطعناتِ خنجره ملكاً مسيحيّاً حتى العظم، يقول بعضهم إنّه فعلَ ذلك من أجل ردعه عن عهره، ولكنّ الغالبية تتفق على أنّه اعتبره زنديقاً لا يذهب إلى الكنيسة المقدّسة؛ أقول في هذا العام، ألف وخمسمئة واثنين وسبعين في نهاية آب عثرَ بعضُ بحارة لواركا في بحر لاس أستورياس في أوفييدو، حيث تقع نابيا، على زورقٍ في مهب الريح

يُحتضر فيه رجلٌ مُثخن بالجراح، وكان فارساً شاباً من نبلاء بلد مدوك، هوغونتياً متعصّباً هارباً من المجزرة التي ارتكبتها سيدةٌ تُدعى دونيا كاتالينا د مِديتشي ، التي كانت تحكم فرنسا ، أمرتْ بالاحتفال بليلة سان بارتولو، معاكسةً بذلك أتباعَ الاحتجاج (البروتستانتية). أخذوه إلى دار ريول الكبيرة، التي تنحدر حديقتها حتى صخور البحر، وفيها مات بعد ساعتين، وفيّاً لطائفته، مطالباً بالانتقام ولاعناً دونيا كاتالينا. وكان الهوغونتي من العناد ومن فورة الغضب والنشاط المتطرّف بحيث بدا أنّه لم يجد في الموت راحةً، فهو يظهرُ في كلّ عامٍ في وقفة عيد سان بارتولومِ في القاعة الكبرى من الدار الكبيرة، يقتربُ من الشرفة، يسند يسراهُ إلى البلور ويترك عليه أثر الدم، ويختفي الفارسُ من جانب الشرفة ، لكنّ الدم الطريَّ والحارّ يبلّل البلورَ. وهكذا دواليك في كلّ عام حتى العام الذي نزل فيه في ريول راهبٌ فرنسيٌّ كان قادماً إلى لا كومبوستِلا وجاء معه برسائل من آل غاستون د إيسابا في فرنسا لأقربائه في أوسكوس، السادةِ آل إيبانييثْ د لا لوثا د سارغادلوس. داخلت الغاليَّ الحليق رأفةٌ على من يكاد يكون جاره في القلعة والكروم، الهوغونيتيّ من العقوبة التي كان يقضيها بسبب عجرفته الهرطقية فخطر له أن يُقدّم البروتستانتيَّ للسيّد سانتياغو كحاجٍّ وقضى الأيّام المتبقّية لعيد سان بارتولو وهو يتصوّر كيف سيكون التقديم، ولم يخطر له كيف سيأخذ الشبحَ، الذي كان بعد كلّ حساب طيفاً تائهاً، إلى لاكومبوستِلا، وبعد تفكير وتفكير خطر له أن يجمعَ في قارورة من زجاج مورانو، كان يحملها معه وفيها روح النعناع الرقيق والظريف لوجعِ الرأس، الدمَ الذي كان يُخلّفه الهوغونيتي على البلور، الذي كان، حسبَ

بعضِ الشهود، كافياً كي يملأ قدحَ أنيسِت (عرق إسباني) سيحضرُ الكاهنُ ومعه الدمُ إلى سانتياغو وسيطلب من الرسول الغفران للمصرّ على إثمه. هذا ما فكّر به وفعله السيّد رئيس الدير، الذي يُدعى لافيت، وكان بديناً وفلاّحاً وعاديّاً في اللغة اللاتينية، كثّ اللحية ولا يُشبه في شيءٍ رؤساءَ الأديرة في الرواياتِ الفرنسية، التي كان يقرؤها القزم والكونتيسات الصغيرات في بلِفيس. كان هذا الأبُ لافيت من نوعية أقدم وريفيّاً، كاهناً صيّاداً وخمّاراً ومشهوراً بصيدِ فراخِ الدجاج الرومي بالفخاخ لأعيادِ الفصح، وكانوا يطلبونه كثيراً في غويّنا كي يلقي عظةَ نزعِ مسامير السيد المسيح. يجب أن نُضيف أنّه كان رجلاً ورعاً وحالماً، ومحسناً جداً، وفي طفولته وبينما كان قادماً من مشاهدة مصارعة الثيران المزوّدة قرونها بكرات خشبية في فيك-فسنزاك بدعوة من عمّة له، رأى مناماً عن سان ميغِل، رئيسِ الملائكة.

ركع السيّد المبجّل في وقفةِ عيد سان بارتولو، بالقرب من الشرفة منتظراً ظهور الهوغونوتي، الذي ظهرَ بدقّة الساعة الثانية عشرة في الساعة الإنكليزية، بالملابس التي رآه البحارةُ فيها في زورق هربِهِ يلفّ وجهَهُ ما يشبهُ الضباب المشع. اقترب من الشرفة وأسندَ، كما اعتاد أن يفعل، يدَهُ اليسرى على الزجاج فبدا أنّه كان يتأمّل الليلَ ويصغي إلى صوت البحر وفجأة لفّ ذلك الضباب المشعّ كلّ شيءٍ، قبل أن يختفي في الظلام. نهض الراهب سريعاً وجمع الدمَ بنسالة يُساعده في ذلك السيّد ريول بملعقة وعبأا نصف قارورة مورانو ورأيا أن الدمَ لا يتخثّرُ ويبقى طرياً حيّاً. شرع الأبُ لافيت في اليوم التالي في رحلته، وبعد أن نام قيلولتين في لورِنزانا، حيث أحسن الراهبان البينيتويين تكريمه، جاء

ليرتاح في تِرمار على بغلته البواتيية، -فحصانُ الغارانيون، الذي منه هذه السلالة، حيوان وديع وذكي، خمول في مزاجه وخمول في نزوه على الأفراس، لذلك يجب إسعاده في هذه الحالة بإسماعه أغانٍ.

في ذلك الوقت كان هناك رجل سَلَمَنكيّ يُدعى دون خوبيتو باخارانو لائذاً في ميِرا لأسباب سياسيّة، وكان مقاتلاً مع دون خوليان إل تشارّو، وله أخ بِرناردوي، راهبٌ منذورٌ معتاد على الذهاب إلى تِرمار للتسامرِ، عسى أن يمرّ حاجّ أو مجرّد مسافرٍ من المسافرين، الذين لم يكونوا في الحقيقة آنذاك كثيرين، نظراً لاضطراب المرحلة. ونظراً لطريقته التاشرية في الركوب، فقد كان ينهك أفراسَ الدير، الأمر الذي كان يُغضِب كثيراً الراهبَ خادمَ الإسطبلات، الذي صار فيما بعد حوذيّ العربة الكبيرة في كورتيس، هو البيتانثي، المعروف بالاسم السيِّئ: السيِّد تِمْبُّوراس. كان دون خوبيتو في تِرمار، حين وصل الفرنسيّ المبجّلُ ودعا كلّ منهما الآخر، وشرح الراهبُ للمحارب الثورةَ الفرنسية ومغامرات دون نابليون والتقيا على السياسة الكاثوليكية ذاتها وأحييا هذا الاتفاق بإبريق نبيذٍ تشانتادي وحكى الراهب له كيف أنّه يحمل دمَ الهوغونتي في حوجلة وينوي أن يطلب من سانتياغو الرحمةَ لتلك الروح المعذّبة. طلب منه دون خوبيتو أن يُريه الحوجلة وأراه الأبُ لافيت إيّاها بأريحيةٍ، لافتاً انتباهَهُ إلى كيف أنّ الدم طريٌّ وسائلٌ وعندما صارت الحوجلة في يدِ المحارب السلمنكي قال:

- هذا ما لا يجب أن يكون معجزة هوغونتية، بل فضيلةٌ من فضائل السيف الكاثوليكي الوفيّ الذي قطع في وقتهِ الجلد البروتستانتي داخلاً فيه كما تدخلُ الغرّافةُ في قربة النبيذ، كان بودّي لو

كنتُ في مِدوك هذه التي تتكلمون عنها ومعي بندقيتي، لنرى ما إذا كان سيفلتَ منّي هذا الوارث الغاليُّ.

قولُ دون خوبيتو هذا وإشعالُهُ النار في الحوجلة وانفجارُ زجاج مورانو في يده، كلُّ ذلك تم في لحظة واحدة. شحب لون السلمنكي وبقي ينظرُ إلى الدمِ الذي سقط على المائدة فبدا أنّه ما يزال يلتهب ويحرق الخشبَ.

- اللعنة! -صاح دون خوبيتو وقد صحا قليلاً مما حدث.

كان الأبُ لافيت قد ركع وراح يُصلّي وقد غربت عيناه على روح الزنديق الذي صار زجاجاً.

ديك البرتغال

دائماً سمعتُ السيّدَ مولايَ مِرْلين يتحدّث بكثير من الاحترام عن مدينة براغا، حيث وُلِدَ، وكان له فيها حجرة في قصرٍ في الشارع الذي يسمونه "النَّجِيّان"، فارسٌ برتغاليٌّ نبيل، رقيق في نبلِهِ وكثير الإمكانيات هو دون إسمِرالدينو دا مامرا مِيّو دِ ليميا، فيشكونت ريبيْرينيا. كان الفيشكونت إسمرالدينو، بحسب ما سمعتُ من أحدَ خدمه ممن يرتدون بزّةً ويحملون بندقيّةً، أجملَ رِجالِ البرتغال في زمانه يتباهى بشاماته وله نظرة حزينة من عينيه السوداوين الواسعتين، حيث يقولون إنّه يبدو عندما ينظرُ إليكم بتؤدة كأنّ ضبابَ دغدغاتٍ غامضةٍ تصدر عنه، كي يلفّكم بحرير رموشه الطويلة والخفاقة. بنظرة واحدة كان يوقظ حبّاً عظيماً، بل وأكثر من ذلك كان يُساعده على هذا صغرُ جسمه وملاحةُ حركاته وكرمُ ضيافته وطواعيةُ إرادتهِ في الهدايا القيمة. كان يأتي إلى براغا بتقليعات باريس، سواء منها ما يتعلّق بالثياب والصدارات أو بالرقص، بالتسريحات أو بالألعاب، بل ويدخِلُ في كلامه، عندما يكون قادماً من فرنسا، كلماتٍ دارجة، مثل: sentimental عاطفي، bombon بونبون، nenúfar نَيْلوفَر la merde latin "اللاتينية الخراء" "le doré aux cochon" إلى الخنازير بالذَهَبِ" وكان

يستخدم هاتين الجملتين الأخيرتين توريةً للإشارة إلى رجال الدين والمطران على التوالي واللتين رسختا حيَّتَيْن في ذاكرتي، ربّما شجّعني على ذلك الاضطرابات الليبرالية في أيّام العصيان تلك ... لكن كلّ تلك الرقّة والجاذبية التي كانت تلفّ ذلك الجسدَ الكريم لم يكن يفيد دون إسمِرالدينو إلا كي ينقض الوصيّةَ السادسة، التي كان دائماً فعالاً ودقيقاً فيها، ولكي لا ينسى حسابَ مآثرِه أمرَ بأن تُثبّتَ في باب قصره قطعةُ حديدٍ ملتوية علّق عليها لوحاً صغيراً من خشب المُغنة، حيث راح يُعَلِّم عليه انتصارات فينوس ويحفر بنفسِهِ بسكينٍ صغير علامةَ ضربٍ. وكان هذا قد أعجب البراغيين (نسبة إلى مدينة براغا في البرتغال)، الذين سرعان ما راحوا يتبعون خطى الفيثكونت، ليناقشوا مَن ستكونُ السيّدةُ التالية التي ستقع بين يديه، أيّ فخّ أهداها، أم أنّه كان حبّاً، وكان الجميع يؤكّدون أنهم يسمعون في الليل ألحاناً سرّية. وامتلأت براغا بشهاداتٍ مزيّفة يُدْلى بها بسهولة عن فتياتٍ متهتكات وأزواج رُكِّبَت لهم قرون ثابتة تماماً، حتى إنّه كان من الأفضل ألا يسجّل كاتب عمومي معتمَد ذلك على ورق مختوم.

كان فيثكونت ريبيْرينيا سعيداً جداً في تعامله وتبجّحه، فنُصِّب في البرتغال كلّها ملكاً للغرام، عندما جاءت فرقة أوبّرا إيطاليّة إلى براغا، كانت الزينة الأعظم التي جاءت بها معها هي المُغنية الأولى الآنسة كارْلا، الشقراء العارية والصادحة. حضرَ دون إسمِرالدينو أوّلَ عرض، وكان له في الطابق الأول من المسرح مقصورة مع ستارة، وحدث أنّ المُغَنِّية كارْلا كانت مولَعَةً جداً بالجواهر. كلّف دون إسمِرالدينو جميعَ صاغةِ البرتغال أن يشتغلوا لحسابه، بحيث إنّ دونيا كارِلا كانت

تستطيع أن تُدَشّن كلّ يومٍ واجهةً. كان الفيثكونت يأخذها ويعود بها في عربته، من النزل السويسري إلى المسرح ومن المسرح إلى النزل، وأكثر من ذلك أمر أن تُغَلّف العربةُ بالأخضر، فخضراوان كانتا عينَي كارْلا وأخضر كان لونها المفضّل. وكان هناك قيثارات تعزف تحت الشرفات، وعصرونيات تُقامُ في حدائق الفيثكونت وأشياء لطيفة وحفلات أنسٍ أخرى. وكانت براغا كلّها لا تنام، يروحون ويغدون لينظروا ويتأكّدوا مما إذا كانت علامة الضربِ وُضِعَت على لوحِ خشبِ المُغنية، وهم إلى اليوم يؤكّدون عندما يُرْوَى هذا المشهد أنّ ساقي الكاتدرائية كان يذهب ليتحقّق ممَا إذا كانت قد انتهت معركةُ الحبّ نهاية سعيدة، كي يُعْلِمَ بذلك القسَّ المعرّف، الذي كان يُعدّ عظةً لاذعة ضدّ دون جوان الجديد. وغنّت الفرقةُ الإيطالية لآخر مرّة في مسرح براغا العملَ المسمى "طالب الحبّ" ثمّ سجّلت للذهاب إلى أوبورتو وهرع دون إسمِرالدينو لوداع الآنسة كارْلا بتقبيل يدها وبهدية هي مروحة مشبكة بالذهب مع صور لآلهة الحب الصغيرة مطرّزة وبقي الفارسُ وسطَ الشارع يُلوّحُ مُودِّعاً بمنديله حتى غاب الموكبُ في منعطفٍ عند أتريو دِ لا كانلا (ساحة القرفة). وعاد دون إسمِرالْدينو يتبعه أصدقاؤه ببطءٍ وحديثٍ فرِحٍ. ودّع حاشيته على الرصيف، وكان هناك في شارع النجِيَّيْن (دوس كونفيدنتِسْ) نصفُ مدينة براغا يأكلهم الفضول، أخرج الفيثكونت السكّينةَ الصغيرة من جيب صدارته الخضراء قبل أن يصعد إلى غرفته وهو يُعطي العكازَ لخادمٍ له، حفر على اللوح علامةَ ضرب أكثر تدويراً وأكبر من المعتاد، فصفّق له الحضور كما يُصفّق في المسرح.

سرى الخبرُ الجديد في كلّ البرتغال وامتُدِحَ في كلّ مكانٍ تهذيبُ

دون إسمِرالدينو البرتغاليُّ، فقد انتظر حتى ذهبت كارْلا ليحكي أنّه حَدَثَ ما كان يُسمّيه السيّد قاضي أبادين "حق الانتفاع"، وفي جلسة لطبقة النبلاء اتفقوا على تكريم الفروسية بالغة التهذيب والجديرة بزمن أقدم، وذهب وفدٌ نيابيٌّ من لشبونة إلى براغا برئاسة مركيزٍ كانت له بين الأندلسيات والبرتغاليات في إبورا ما لِدون إسمِرالدينو في براغا من طول باع. وعلى الرغم من أنّ أصحاب السيادة في براغا لم يبغوا أن يحضروا التكريمَ ،كيلا يُثيروا القلقَ، فإنّ العامّة كانوا يحتفلون في الشوارع والساحات. وحدث أنّ دون إسمِرالدينو كرّم أندادَهُ بمرطّب والشعبُ يُصفِّق في الشارع وأجمعَ أصحاب الألقاب على الخروج إلى الشرفة ليحيّوا الناس على هتافات "يعيش" وكان دون إسمِرالدينو قد شحب لونه من التأثّر ومركيز إيفورا، الذي بدا له أنَّ من العدل أن يفسح الطريق للفيشكونت ،لذلك صاحَ رافعاً قبّعة الأبازيم الرسمية العالية:

- نخب براغا التي تفوّقت مرّتين! هوَ ذا ديك البرتغال هنا!

في اللحظة ذاتها احمرَّ وازرقَّ واصفرَّ دون إسمِرالدينو وانفجر مثل صاروخ وصار ديكاً: ديكاً جميلاً جداً بعرفٍ وذيلٍ طويلٍ وطار من شرفة إلى أخرى وانتهى به الأمر إلى الحديدة، التي عُلِّق عليها لوح علامات الضرب الألف، مؤشّرِ معارك الحب الكامل كما لو أنّه يُعلن عن نزل إنكليزي. صُعقت طبقةُ النبلاء، صاح العامَّةُ وركضوا، أُغمي على النساء، وصاح فرانسيسكانيٌّ بأنّ ما حدث جزاءٌ عادل فالذنوب كثيرة وملك حفيدٌ لِدون إسمرالدينو من الفنّ ما جعله يُمسكُ بالديك ويضعه في قفص وقدّم القسّيس المُعرِّفُ عظتَهُ شهراً كي يبين بوضوح الثمن الغالي الذي ينتظرُ المتعصبين للزنى الحرّ، ويمكن القول، أكّد لي خادم دون

إسمِرالدينو ذي البزّة والبندقية، أنَّ البرتغالَ غرقت في الحزن وألحانَ الليل ندرت والنساءَ ذبلْنَ. يكفي أن نقول إنّ حانوتَي عطور في براغا وحدها اضطُرّا لأن يُغلقا أبوابهما.

وبوضع دون أسمِرالدينو في قفص مزوّقٍ جداً، جاء أطباءُ لرؤيته، وجاء أيضاً مُعزّمُ فيسيو، وما من استشارة إلا وقاموا بها، الوحيد الذي يبدو أنّه أصاب قليلاً هو خياط كينتادينيا، الذي كان مُجَبّر عظام عظيم واقترح للمحافظة على الديك حيّاً وسعيداً، ريثما يتمّ تداول الآراء، أن يوضع دون إسمرالدينو في قفص أكبر ويُعلّق عليه مثلَ ميزان لوحُ خشب المُغنية الذي حُفرت عليه إشارات الضرب. وكان لدون إسمِرالدينو ابنُ عمٍّ راهبٌ إيرونيموسي، في الدير الصارم الذي يتمتع فيه هؤلاء التوابون في لشبونة وكان رجلاً كثيرَ القراءة، فقرأ، بينما كان يُقلّب صفحاتِ مجلّد كبير عن حالتين فقط تحوّل فيهما الرجل إلى طير والعلاج بقي في الحجّ إلى سانتياغو، حيث كان ملاحَظاً أنّ مُراشِي الماضي عادوا إلى هيئتهم الطبيعية. اتفقت العائلةُ على تقديم دون اسمِرالْدينو إلى الرسول (سانتياغو)، وهكذا كان أن ظهر السيّدُ الراهب على بغلته ذات يوم في ترِمار، ومعه الخادم ذو البزّة والبندقية على حصان عصبيّ جداً والقفص على محفّة، بل وأكثر من ذلك جاء بالإضافة إلى خدمِ المحفّة خادمان بديلان ولإعطاء شهادة على ما جرى في الحجّ جاء السيّد مفتش براغا الكنسي ككاتب بالعدل مُحلّفٍ، لم أرَ قط رجلاً بمثل طولِه على بغلةٍ بمثل صغر بغلته، حتى إنّه كان باستطاعته وهو راكب أن يلعب بحجارةِ الطريق لعبةَ الكرة.

اجتمع في ترِمار نصفُ رهبانية البرناردويين في مِيْرا وكلّ أصحاب

البيوت والخدم كي يروا الديكَ دون اسمِرالْدينو، جميلَ الغناء، لامعَ ومتعدّد ألوان الريش، التي يغلب عليها لون الشمس الذهبي القديم، غنيّاً، جميلَ الأصابع، قاني العرف بنقاطه الخمس المرفوعة و صياحه السهل المتواصل.

وكان لوح خشب المُغنية مع إشارات الضرب معلّقاً إلى سقف القفص مثلَ أرجوحة، وراح أكثر الرهبان فتوّة يعدّونها، والديك يحصيها معهم بصياحه المدوّي. راح واحد من الوصفاء يُبدِّل له الماء ويُقدّم له بيضة محزّزة، فرفع باب القفص أكثر من اللازم، الأمر الذي استغلّه الديكُ، فلم يروا رِماحاً أسرع منه ولا حتى في معركة سولفِرينو، كي يخرج من وراء قضبان الخيزران الملونة ويطير إلى دعامة غرفة الطعام ويقفز منها إلى متن بغلة السيّد المفتش ومن البغلة إلى البحث عن البرّية. ورحنا نحن الحاضرين نجري لنصيد الديك، الرهبان رفعوا جبّاتهم وراح رجل مدنيّ يُقلّد قرق الدجاجةِ، والراهب الإيرونيموسي يُصلي، والمفتّش يُرَوِّح بقبعته الفطرية، وأصحاب البيوت والخدم وأنا نضحك من المغامرة، مندهشين من هذا الحدث. أخذ الديكُ طريق دير مِيْرا، طار فوق سياج الحوشِ القديم، وحين أدركوه كان قد صار بين الدجاجات دون جواناً أكثرَ انتفاشاً من تركيّ القسطنطينية في حريمه، ولو كان باستطاعة الديك أن يحمل سكيناً صغيرة في صدارة ويعرف كيف يحفر صلباناً بورغونية (نسبة إلى مدينة بورغون في فرنسا) على لوح من خشب المُغنية، لكان دون إسمِرالدينو فعل ذلك، فلا يضيع الرقمُ من ذاكرته...

وبالقبض على الديك عاد إلى قفصه وتابع موكبُ السحر طريقَه إلى كومبوستِلا والأخبار التي وصلت إلى مِيرا وإلى تِرمار هي أنّ دون

إسمِرالدينو أُصيب بنزلةٍ صدرية وخرج له كيسان دهنيان مثل بصلتين من بصلِ فِرين في الحوصلة، عذراً منكم، وأُصيب بِحمّى سبتية، أنهكته في نزل في سانتياغو، حيث فارق الحياة. قالت الأكثريّة إنّهم قبروه هناك ووضعوا لوحَ خشب المُغنية أرضيّةً له وإنّه يوجد اليوم في مِيْرا وفي أثومارا سلالةٌ من الدجاج الذهبيّ البيّاض جداً والجيّد أيضاً لطبقِ البِبيتوريا، سموه برتغالياً وهي كما يبدو ثمرة الساعة القصيرة التي قضاها دون إسمرالدينو في حوش دير سانتا ماريا لا ريال الشهير في مِيرا. كم كان يودّ مولاي دون مِرلين لو كان معلّماً في هذه الحالة!

ملحقات

رواية مسيو تَباريي

أترك لك مكتبتي
وروايةَ "ضرطة الشيطان"
التي نسخها غوي تاباريي،
الرجل الذي ينطق بالحقائق.
ستجدها تحت طاولةٍ،
مادتها في غاية الأهميّة
وثغراتها حتى ولو كانت فظّة في صنعَتِها
إلا أنّها مغفورة.

فرانسوا فيّلون: الوصيّة الكبرى

وجدتُ في هذا الصيف -كان النهر جافّاً والناس والماشيةُ يمرّون ضامرين في ممرّ لا فالينيا، كنتُ قد ربطتُ الزورقَ إلى الوتد وفاضَ عنّي الوقت كي أرتاح في البيت-، أقول وجدتُ كرّاستين من "رواية ضرطة الشيطان"، أهداهما إليّ المسلمُ السرُّ وبقراءتهما بالنظارة التي صرت أحتاجها يوميّا، رحت أضحك ويخطر لي الآن أن أروي أهمّ ما في هذه الرواية، التي يُحكى فيها عن الشيطان، الذي يُدعى كوبيّون، وصلتنا إلى ميراندا أخبار حين اضطرّ مولاي لأن يُسافر إلى غاولا، لينزع رائحة الكبريت عن كونتٍ من تلك المملكة، وكانوا في البداية قد اعتقدوا أنّهم وقعوا على منجمٍ، فاستقصوا واستقصوا، وتوصّلوا إلى أنّه لم يكن غير عصبة من الشياطين أرسلهم الشيطانُ الأكبر، وفَرَّغهم فوق إنكلترا وتركوا في كهف ملابسهم القديمة. وكان باستطاعة رائحة الكبريت التي تشرّبتها تلك الأسمال أن تُغطي نصفَ ريبِيْرو. وكان كوبيّون هذا شيطاناً رقيقاً جداً، درس ليصبح صانع عطور في فلورنسا بإيطاليا، حيث اتخذ عادةَ الاستحمامِ بماء زهرِ الفتنة. تحكي الروايةُ أنّه كان في سُريا فتاة أرملة متفانية في حبّ القديس سان ثيرياكو، وكانت غنيّة ببيتها وتملك إرثاً جيداً من المرحوم، أرادت أن تُشيد للقديس صومعة في جبل هو بالضبط الجبل الذي اعتادت أن تقضي ساحراتُ بلاد أوسما أيامَ الحصاد الحارّة فيه. لجأت هؤلاء الطليطليات كي يتنصلن من الاتفاق مع الأرملة، إلى شيطان متثائب وأراغوني، لكن سرعان ما عرفت الأرملةُ أنّ الذي

كان يغويها هو الشيطان، لأنّها كانت تتمتّع بحاسّة شمّ دقيقة ومُمَيِّزة، تلتقطُ الروائحَ الخبيثة التي تمرّ طائرةً. عندها بحثن في عالم الشياطين عن شيطان لا تصدر عنه علائمُ رائحةِ الكبريت وله رائحة عطر بشريّ، ولم يكن هناك من آخر مجهّز غير كوبيّون، الذي كان في ذلك الفصل في باريس يُعَطِّرُ فرنسيات. كانت الأرملةُ قد بحثت عن بنّائين وهنّ على عجلة كي يلوين عزيمتها. وصل كوبيّون إلى سُريا، مرتدياً ملابسَ مشغولة بالإبرة، ممرّراً نفسه على أنّه من السلالات السُرِية وراح يوزّع الإكراميات والصدقات وأعلن أنّه جاء معه بالمصادفة في جيبه بماء مُقَطّر من لحية سان ثيرياكو. عشقت الأرملةُ، وتلك هي الحالةُ، على الفور ديونيسوس هذا، الذي جعلها تشمّ ماء سان ثيرياكو ووعدها بأن يدهن لها شامةً مُشعرة في ذقنها بمرهم بابونج مالطا. دعاها دون مزيد من التأخير كي تُغادر معه إلى تارآغونا، حيث يملكُ قصراً ويمكن لقسيسه، وهو ابن عمّ رئيس الأساقفة، أن يُزوّجهما. طلبت دونيا فلورينا، إذ هكذا كانت تلك الأرملةُ تُدعى، مهلة يومٍ كي تُجيبه، ومنحها لها كوبيّون بأريحية. وفي يوم المهلة ذاك همست لها مُدَبّرةُ منزل المرحوم، وكانت تقوم بأعمال المنزل، متسائلة عما إذا لم يكن طالب يدها هذا شيطاناً آخر. اعترفت دونيا فلورينا أنّه لم تكن تصدر عن ذلك الغندور غيرُ رائحة الورد وماء زهرِ الفتْنَة وخمرة بولو، والذي كانت تطلعاته للزواج تُسيل الزبدةَ عندها وكانت حقيقةً بيضاء وشهيّة، لكنّها لم تتخلّ عن تصوّر كيفيّة اكتشاف الخديعة، إذا كانت موجودة بالفعلِ في تلك المعاملة. كان كوبيّون يسمع حديثَ الأرملةِ ومُدبّرة المنزل الجافّة من المدخنة، فاستخدم كلّ ما عنده من عطر كيلا ينكشفَ أمره، استحمّ بماء زهر الفتنة كما اعتاد أن يفعل، وغسل قدميه بنشّافِ الزنبق، ودهن

شعره بعسل الورد، ولكي يُموِّه أنفاسه، شرب مطرباناً من نبيذ سنبل الطيب. حكت الأرملةُ لكوبيّون حالةَ الشيطان المُتثائب وكيف راحت الساحراتُ يُخربن عليها خططها لبناء صومعة سان ثيرياكو، وأنها تخاف أن يُغويها الشيطانُ الأكبرُ ومجموعته من أصحاب القرون. طلبت الأرملةُ من كوبيّون والدموع في عينيها، معتذرة عن هيامها به، أن يضرط لترى ما الرائحة التي سيُصدرها. راح كوبيّون يتوسّلُ إليها، لكنّه عندما رأى أنّ الأرملةَ بقيت تبكي وبافتراضه من خلال معرفته كشيطان بأن النبيذ العطر كان قد وصل إلى أمعائه السفلى، أطلق نيزكاً كبيراً ومُدويّاً في سرواله أشبه بدويّ طبل في استعراض عسكري، فعبقت الغرفة كلّها برائحة سنبلِ الطيبِ الحلوة فرمت الأرملةُ نفسها بين ذراعي الشيطان كوبيّون، حملها كوبيّون في عربة إلى تاراّغونا وفي قفّة العربة كان يمضي صندوقا ذهبِ الأرملة وراحت تظهر في بعيد أبراجُ المطرانية حين طلب كوبيّون من دونيا فلورينا بين قبلة وقبلة أن تنتبهَ إلى عطر جديد ونفخ في أنفها الدقيق بدفقة بخار كبريت، صائحاً بين ضحكاته بأنّها كانت تُضاجع خبيثاً متعلّماً. ماتت الأرملةُ ألماً دون أن تنزل من العربة وعاد كوبيّون عطّاراً بالذهبِ إلى باريس.

أحكي هذه الرواية لأنّها كانت أوّل روايةٍ أقرؤها وكان مولاي يُحبّ كثيراً أن أحكيها له، خاصّة حين كنّا نأكل الكستناء بعد الغداء وحين كنتُ أصل إلى ريح العربة كنتُ أقول: مع الاعتذار من الحضور! وأقوم بفعلتي الظريفة. كذلك أحكيها لكم كي تروا السعادةَ التي كنّا نقضي بها الشتاء في ميراندا، حين كان يأتي موسم الثلج، وكانت المياهُ تغمر طريقَ المرج والكلابُ تنبحُ على الذئبِ الذي كان يمرّ نهاراً بمحاذاة البيت. يا ليت الزمان الماضي يعود!

بول وفرجيني

كانت قراءةُ روايةِ "بول وفرجيني"، التي كتبها شخص يبدو لي أنّه كان رجلَ دين إكليروسي، يُدعى دون برناردان دي سان بيار، دارجةً في باريس. باعها الغريبُ إليماس (عالم) في أحد أسفاره إلى بنات بِلْفيس، حين لم يعد دون مِرلين يقيم في ميراندا، حيث بقي خوسهْ دلِ كايرو راعياً للبيت، وقد تزوّج لتوّه من كونتيسة صغيرة، من ذوات الشعر الأكثر شقرةً، حبلت من الغندور بِلْمونت وأنجبت منه طفلاً مات عند ولادته. ذهبتُ ذات مساء في زيارة لأطلب قَطْعَ صفصافتين تعودان لِدون مِرْلين ولا تسمحان بدوران العربات التي كانت تمرّ في معبر باثيوس. كان دون مِرْلين قد سجَّل في دفترٍ ملكياتِ ميراندا وحدودَها والخدم الذين كانوا فيها وكم من الجبل يعودُ لكنيسةَ جونشيد، أيام عدادين الماء في لوس كابوس وفي البونتيغو للريّ وللطاحونة وكانت الصفصافتان واحدة تدعى بول والأخرى فرجيني. كان من ذوقِ مولاي، ومن آدابه ومشاعرِ ذاكرته أن يُطلق أسماءَ القصصِ على الأشياء، كان يُسمّي البندقيةَ نابولي وعربةَ العجلتين والمقعدين فيتون، وعلى الدوّر دوّار مينيو، حيث انقلب زورقُ الشيطان الفارسي بينتو، سالامينا وكان يأمرني بودٍّ مليحٍ حين كان يذهب إلى لوغو أو غاولا ويأتي معه بهديّة ما قيّمة لمولاتي دونيا

خينبرا، أن أذهب وأرتدي ملابسي كي أحملها إليها في صينية، ويقول لي رابتاً على ظهري:

- خذ هذا الوسيمَ لِدونيا دولثينيا دِل توبوسو.

وشاحٌ فرورٌ من الحزن كان يعلو البسمةَ العريضة وهو يقولُ لي ذلك. بالتأكيد كان دائماً يكنُ لها بعضَ العشق. لكنّني كنتُ في موضوع أنّني طلبتُ إذناً كي أقطعَ بول وفرجيني وكان خوسهْ دِل كايرو هو الذي يمنحه لي. كانت الصفصافتان من النوع المسمى الباكي وكانتا تالفتين تماماً، حين تدخّلت المرأة وقالت إنّها ونظراً للذكرى الحزينة التي تحتفظ بها عن ذينك العاشقين بول وفرجيني، التي قرأت روايتهما مراتٍ ومراتٍ في بِلفيس وكانت تُبكيها خاصّة، أثناءَ حملها من ابن بِلمونت الأكبر وأنّها كانت تجد في شقاء ذينك العاشقين عزاء لها في شقائها ولم تكن تبغي أن ترى الصفصافتين مقطوعتين. وأجاب خوسهْ دلْ كايرو، كما تريد هي، وكنتُ أعرف في قرارة نفسي أنّه كان سعيداً بذلك لأنّه لم يكن يعرف كيف ينساها، على الرغم من أنّ زوجته كانت من النساء الجليلات في قلعة بِلفيس، ولو أنّه كان متزوِّجاً مثلي من خادمة لبكى من الضحك وتركني أقطع الشجرتين المُلقّبتين بالحبيبين. وكم كان سهلاً على خوسهْ أن يسمّي نعومة النساء وتدلّلهنّ عهراً!

وعندما شربت كأساً آخر سألتُ الكونتيسة ما موضوع رواية بول وفرجيني، فراحت تبكي وتقول إنّها لا تحكيها لي خوفاً من أن يغور حليبها من ذكرى تلك الآلام وكانت تُرضع وقتها ليوناردين، الذي حقيقة كان كبيراً وكان وهو في الشهر الثاني من عمره في عمر الزواج. والآن أتذكّر أنّها لم تقُلْ إنّ السيّدة الكونتيسة كانت تُدعى دونيا مارتينا.

ودّعتنا وذهبت إلى أعمالها، لكن ليس قبل أن تترك لنا إبريقاً آخر من النبيذ.

- هذه الرواية قرأتْها لي دونيا مارتينا حين كنتُ أذهب إلى بلْفيس لأعشقها، خلسةً عن حارس القزم، وإذا كانت ما تزال على مثل هذا الفضول من أمرها -قال لي خوسهْ دِل كايرو- فلنُفرغْ هذا الإبريق، بينما أُعمِلُ ذاكرتي في الأنساب والخطوات، وأرى ما إذا كان هناك من وسيلة كي أُسجّلها لك، فنحن لا خوف علينا من أن يغور حليبُنا، وإن حدث فهو لا يضرّ طرفاً ثالثاً.

شربنا بصمت ذلك الإبريقَ، بل وتواسينا بآخر، واختصر لي دون خوسهْ دِل كايرو قصّةَ بول وفرجيني، طالباً العذر منّي على أخطائه، فقد كانت المرّة الأولى التي يحكي فيها حكاية أدبية.

- إنّ بول هذا الذي تحمل الروايةُ اسمه، كان منذ نعومة أظفاره صديقاً عظيماً لتأمّلِ وحشةِ البحر وكان يجلس على الضفّة ليتخيَّلَ فيه دروباً حزينة،، كان يتابعُها في ذاكرته برهة طويلة ويضع عليها أماكن على هواهُ: هنا نَزْلُ جزيرةٍ وهناك بعيداً لقاءٌ مع سفينة بشراعين وفتاةٌ تُلوّحُ بمنديلها مودعةً، وهنالك في البعيدِ البعيد نارُ منارةٍ هائلةٍ ومتواصلة في الليل، على اليمين رياح وجنوحاتٌ مخيفة تجعل الأمواج رفيقة للغيوم، وعلى اليسار أسطول من أسماكِ قرش زرقاء وعملاقة، وبانتهاء الرحلة دائماً كان يجد بلداً بريئاً، تتكلّم فيه الحيواناتُ، ولم يكن فيه هذا لي وذاك لك، أجملُ الفتيات تعشق الغريبَ القادمَ تواً من النظرة الأولى. عند بابِ كلّ بيت شجرة تُعطي خبزاً وأخرى تعطي نبيذاً. ومع بوفون عالِم النباتاتِ والحيواناتِ راح يُعَمِّرُ الجزرَ والبلدان. عادَ عليه

كلُّ هذا الخيال والتذكّر، وهما هنا شيء واحد، بالقلق والمرارة، مُراً كان بالنسبة إلى بول بلدُهُ، مُرّةً عائلتُهُ، مُراً العملُ، ومُرةً صداقاتهُ وأيّامُهُ ولياليه. بلغ من القلق أنّه قرّر أن يُبحِر في قاربٍ ثلاثيّ السواري إلى باسكوا فلوريدا من ميناء يسمونه هونفلور، كان منه ذاك الذي تتذكّره، الأميرالُ الذي جاء إلى مولانا دون مِرلين لينزع السحر عن الشوكة الفضّية، التي عندما كان يأكل بها يصير اللحمُ سمكاً. كان يقول إنّ هونفلور كانت جميلة جداً: بيوتُها مطلية وطوابقُها السفلية فيها حاناتٌ، نوافذُها صغيرة وبلورها ملون والناس لطفاء، بل وكان في تلك البلدة الصغيرة حانوتان للقفّازات، والحانات بعضها كان للمدخّنين وأخرى لغير المدخّنين. ركب بول في مركب ثلاثيّ السواري اسمه "كورنتين الجميلة" وكان مسافراً إلى الأمريكتين للبحث عن الممر الشمالي الغربي. أقول، مُنْطَلِقاً من أنّ الريح التي تهبّ هنا تهبط من لا كوردا، إنّ طريق هذه الرياح لا بدّ كان ممراً شديد الرياح واحتمال الغرق فيه كبير. ودّع بول فرنسا ذات صباحٍ مُشمِسٍ، واعتبر النسمة السعيدة التي راحت تدفع الشراعَ إلى خارج المياه الإقليمية فألاً حسناً. لن أحكي لك عن الرحلة ولا عن العواصف، كما لن أذكر ما إذا كان بول يُصاب بالدوار ... ث أنّه بعد اثنين وأربعين يوماً من الإبحار كان بول يُجفّف جواربه في أعلى إحدى السواري، فداعب أنفَهُ عطرُ يابسةٍ بعيدة، عطرٌ لم يكن لا أكثر ولا أقلّ من العطر الذي كان يهديه في تخيُّلاته إلى البلد البريء الذي كان يحلم به. أكّد له القبطان أنّه لا يوجد في تلك المنطقة يابسة على مسافة شهر، سخر البحارةُ، الذين كانوا في أغلبيَّتهم نورمانديّين، من حاسّة شمِّهِ، وحده البرتغاليّ كان يعتقد أنّه سمع أنّ جزيرة مالكا كانت

قريبة من تلك المنطقة، إذا ما وقعوا على ممرّ غينيا. لكنّ بول استمرّ في تلقّي العطر، الذي كان دغدغةً. أقولُ كان يتحضّر لتلقيه ليلاً مثل كلبٍ يثق بأن يد صاحبه ستمتدّ إلى ظهره لتُداعبه في ظهره. وبعودة ذلك القلق الماضي، قرّر أن يسرق زورقاً كان على متن السفينة ويجذّف حتى البلد البريء، وهذا ما فعله. ونظراً لاضطرابه فقد فاته أن يتموّن وبعد يومين لم تبق معه كسرة خبز لم يفتش عنها في جيبه، فلم يعد يتغذّى إلا على عطر البلد، الذي كان في كلّ مرّة أكثر كثافة ودفئاً من حوله. لكن ما عاد التوقُ يكفيه كي يعيش، فغاب في اليوم الخامس عن الوعي. يبدو أن تيّاراً أخذ الزورقَ وشقَّ له طريقه إلى اليابسة، التي كانت قريبة جداً وكان التيار من الجمال بحيث إنّه وضع بول على الرمل، في الوقت الذي كان هناك فتاة تُدعى فرجيني تبحثُ عن قرطٍ كان قد ضاع منها. صاحت الصغيرة عندما رأت الفتى مُغمىً عليه، فهرعت قابلة تُدعى ترِنْثيا، وتلمّست الحياة في صدره وبجرعة رومٍ وماءٍ سكّر أعادت الحواسّ لبول فكان أوّل ما رآه عندما فتح عينيه وجه فرجيني، الذي كان وإن نزع إلى السمرة، جميلاً بطلاوة. ذهبت دونيا ترِنثيا في طلب الحاجب من الضيعة وبقيت فرجيني مع بول تعطيه جرعاتٍ من الماء مع السكّر وأعواد القرفة الصغيرة كي يمصّها، تُداعب جبينَهُ وتُغنّي له بكلماتِ تشجيع. الحقيقة أنّ بول كان متيّماً حتى قبل وصوله، لأنّه جاء معه بالحبّ في أحلامه. نسيتُ أن أقولَ لكَ إنّ ذلك البلد كان بلداً بريئاً، وكانت فرجيني عاريةً تماماً وكل ما فيها من جمال ظاهرٌ للعيان. كان يقول السيّد الكونت، حموي المرحوم، أسكنه الله فسيح جنانه، إنّ أكثر وأقصى ما فعلته رواية بول وفرجيني في باريس، هو أنّ الرجال صاروا

يُقَلّدون بول في أحلام يقظتهم وفي تقلّبهم في القلق، والنساء رحن يُقلّدن فرجيني، وصار بذلك من السهل التعرّي، ولذلك لم يكن مستغرباً أن تُركّب قرون لنابليون بعدها بقليل.

كان لا بدّ من شربِ إبريقٍ آخر، فتلك كانت صلاة طويلة ومتواصلة بالنسبة لِخوسهْ دل كايرو. لفّ سيجاراً بتؤدة، أخرج القدّاحةَ وقدحها ثمّ وبعد أن تمتّع بمصّتين تشجّع على متابعة الحكاية. راح يحكي سعيداً أنّ الحكاية والتعليق يخرجان معه جيّداً. لم أعتقد قط أنّه كان على مثل هذه الدراية بالعالم.

- تأخّرت دونيا تِرِنثيا قليلاً في المجيء مع الحاجب، قضى بول هذا الوقتَ في تفحّص الطفلة فرجيني لينتهي بعشقها، وبما أنّه كان يحمل معه في الكيس بزّة جديدةً، مكوَّنة من بلوزة مشغولة بالإبرة وبنطلونٍ مُخصّر من القطيفة الزرقاء وإزارٍ من الحرير الأحمر للخصر، نهض تُساعده فرجيني ولم يرَ مانعاً من التعرّي أمامها والاستحمام قبل أن يرتدي ملابسه الجديدة ،بل وأكثر من ذلك لم يتوارَ كي يبول، حيث لم يرَ أثراً لخطيئةٍ في عمل ذلك حيث كان، فمما كان تصوّره وما كان يراه لم يجد إلا براءة لطيفة وطبيعية. أعتقد أنّه بالنسبة لهذا الأخير تجاوز الحدَّ قليلاً في ثقته. حين وصل الحاجب وتِرِنْثيا وجدا الشابّين يأخذ الواحدُ منهما بيد الآخر وينظر في عينيه. حقّق الحاجبُ بعدد من اللغات مع بول، وكان رجلاً بديناً، أمردَ اللحية، يضعُ حول عنقه عقداً من حبّ الكاكاو، ولم يجد بول طريقة يُجيبُه بها، فحمله الحاجب إلى كوخٍ بجانب نبعٍ وتركه هناك مرتاحاً بعناية تِرِنْثيا مع طعام متنوّع ووفير. فرجيني أرادت بدورها البقاءَ كي تدفِّئ له قدميه وتبعد عنه الذباب. وهكذا

قضى بول أيّاماً سعيدة في ذلك الكوخ، وراح يعتاد على أن يصبح بريئاً ويمضي عارياً، وكانت ترِنثيا تُساعد الفتيين في حبّهما، حيث راح يُعَلِّم الواحدُ منهما الآخر كلماتٍ في الغابةِ وعلى الشاطئ. عاد الحاجِبُ في اليومِ التاسع حاملاً أمراً من ملك البلاد يقضي بأن يحملوا إليه بول كي يُلقي عليهِ نظرة، وكان الملكُ على مسافة يومين من السفر وبقيت فرجيني تبكي لأنّهم أخذوا منها الفتى. كان للملك -الآن عليّ أن أختصرَ كي أضع نهاية للرواية- ابنة وُلِدَت زنجيّة، وبما أنّ بول كان شديد البياض والشقرة، فقد فكّر (الملكُ) بأن يجمع بينهما، عسى أن تزيد شهرة العائلة بالحصول منهما على ابن بين الأبيض والأسود وكانَ للملك في الحكايات جدّ ملوّن. وراح بول يتركهم يتصرفون به بسهولة، لأنّه لم يكن يفهم. قابل السوداء في السرير، وكانت رقيقة وكريمة وضاحكة جداً. حدث أن جاءت فرجيني ووجدته في غراميات جديدة: بكت الصغيرةُ وهربت إلى الغابة، حيث ألقى القبضَ عليها بعضُ الهنود، الذين كانوا يصيدون وباعوها لشخص هولندي عندَهُ حانوت بضاعة رخيصة في شرم يتزوّد منه صيّادو البكلاه بالماء. عندما رأى بول فرجيني تهرب وكان بلا حراسة خرج بحثاً عنها. أيضاً صاده الهنود وباعوه إلى ملك فلوريدا الزنجي الأسود، الذي كان يستخدمه عبداً كي يركب على كتفيه ويحمله إلى الحفلات. باع الهولنديُّ فرجيني البريئةَ وقد رقّ لدموعها، إلى وجيهٍ هندي، كان يُتاجر بتسمين النساء لملوك المكسيك. لن أنتهي أبداً من أن أروي لك كيف أنّ بول بدّل أصحابه سبعَ مرّات وكان في كلّ مرّة يتبع أثرَ فرجيني وبما أنّ هذه تزوّجت أربع مرّات ضدّ إرادتها، وسُرقت مرّتين وفي آخر مرّة بيعت فيها عادت إلى يدي الهولنديّ وهناك في حانوت البضاعة

الرخيصة راحت تموت وكانت على هذه الحال تبكي حين وصل بول، الذي هرب من مالكٍ آخر كان مُدَخِّناً كبيراً ويسكر من تدخين سيجار الهافانا. عرف الحبيبان بعضهما بعضاً، وكان بول قد صار يعرف لغتها، فتبادلا أرقّ الكلام في العالم وغفر كلٌ منهما للآخر مغامرته. وضع بول فرجيني في صورة إجباره على الذهاب إلى سرير السوداء بنت الملك، والبرهان على ذلك أَنّ الطفل جاء أسود مثل هباب الفحم، فهو لم يجهد إرادته في الحبّ بل بممارسة العمل. لكنّ الوقت تأخّر ففرجيني ماتت غافرة له، مُخلِّفةً لبول طفلاً لها من ملك المكسيك موجود هناك عند قدم السرير الفَردي، يمصّ أعوادَ قرفة. رقّ بول له وهو يتذكّر أنه مصّها أيضاً حين عثرت فرجيني عليه على الشاطئ، فلم يبغِ بيعه للهولندي، الذي دفع به سعراً جيّداً، لأنّهم طلبوا منه في إسبانيا أميراً هنديّاً لعمل مسرحي. قال لي راهب شميل، حين كنّا نتحدّث عن هذا: إذا كانت هذه القصّةُ صحيحةً، فالمطلوب كان من أجل عرضه في معرض برشلونة، فقد جاءت الأوراق (الصحف) بخبر أنّ الملكة كريستينا هي التي ستفتح أبوابه.

- وإلامَ انتهى بول؟ -سألتُ.

- جاء إلى فرنسا، ومعه كيس صغير من الذهب فتح به حانوت خرائط ونظارات للنظر بعيد المدى في هونفلور وأرسل الأميرَ الصغيرَ إلى المدرسة وواسى نفسه برؤية السفن تدخل وتخرج وهو يمصّ أعواد القرفة. وربّما أنّه تزوّج ثانية، فالرجل وحيداً يسيء تَدَبُّرَ أمره.

- عدتُ إلى باثيوس، دون الحصول على إذن بقَطْعِ الصفصافتين الباكيتين. في شتاء تسعمئة واثنين، جرف فيضان النهر فرجيني نزولاً. بقيت بول وحيدةً عند نهاية المخاضة. لكنّهم عندما سدّوا النهر في لانيور غمرتها المياه.

أخبار مُتَباينة عن حياة مِرْلِين، ساحر بريطانيا

في نهايات أيّار عبر النهرَ فارسٌ إنكليزيّ، أحمرُ الشعر، في زورقِ فِليبّ د أمانثيّا ، صحيحٌ أنّه كان صغير البدن، لكنه كان رشيقاً وعفريتاً، متدثّراً من عوامل الطقس بسترة بلا أكمام ذات مربعات خضراء وسوداء ويغطي رأسه بقبّعة أوروبية، سكّريّة اللون من القماش المُشمّع. وجاء معه تحت إبطه بحقيبة من الجلد الأسود وأعلن لفليبّ أنّه جاء إلى ميراندا من رينير في بريطانيا، ليتأكّد مما إذا كان دون مِرْلِين قد ملك ذرّية أثناء إجازاته الغاليثيّة.

- كان هذا مولاي -قال فِليبّ، الذي مضى عليه الآن سبعة أعوام في سان مارموس- وليس عندي أخبار عنه، تراه مات؟

- منذ أقلّ من عام رآهُ بعضُ رجال الدين الأيرلنديين في نابولي، في سانتا ماريّا دِلا غروتا. قال لهم إنّه ذاهب للحجّ إلى الديار المقدّسة.

- شكّل هذا الموضوعُ هاجسه؛ أيّ ألاّ يموت قبل أن يذهب إلى القدس.

رسم فِليّب إشارة الصليب دون أن يُفلت المُرديّ، وبنهايته رسم الصليبَ على وجهه.

- سنوات طويلة مضت! أما فيما يتعلّق بذرّيته في ميراندا ، فهو لم

يُخلف ذرّية. عادة ما كان يقول مولاي إنّه متعفّفٌ لأسباب كبرى ثلاثة، السبب الأول والأساسي هو في كون سيّدي مرْلين فيلسوفاً والسيدة الفلسفة تتطلّب العفّة. وهنا كان يضرب دون مرْلين مثلاً، قريبٌ له قديم، هو أبلاردو دِ باريس، خصاه بالقوّة خَدَمُ أحدِ الرهبان القانونيين، عمِّ المدعوّة إلويرا، التي كان يعشقها. كان هذا تمادياً كبيراً. السبب الثاني الذي كان يُقدّمه مولايَ هو عمره، ويضيف إنّه لو ترك السحر يَتَملّكه وذهب ليبحث عن بنات في الخامسة عشرة للزواج القانوني، لراح الجمهورُ، الذي يُتابع باهتمامٍ بالغٍ موضوعَ الشيوخ الذين يتزوّجون من يافعات، يُصَفّرُ له، بل ولاخترع له خيالُهم الشكّاكُ قروناً قبل أن يخرجا من الكنيسة. وهنا راح يقرأ لي رسالة مطرانِ هذه المطرانية، دون غيفارا إلى الورع روبن، البلنسيّ العجوز، الذي تزوّج طفلةً، أو يحكي لي قصّة الحلاق فالز، الجرّاحِ الفصّادِ فيناروث الذي تزوّج وهو ابن اثنين وسبعين عاماً من ابنة سبع عشرة سنة، برغبة أن تسرِّحَ له شعره وأن يترك شعره طويلاً ينمو حتى كتفيه فقط للتمتع بتلك الدغدغة. وذات يوم عملت الفتاة الصغيرة من شعره ذاته عقدةً حول عنق العجوز وشدّت عليه. كذلك كان يحكي عن صديقه فوشِهْ د فرانسيا، أكثر رجال قرنه سرّية، الذي باعه شيفرة يستطيع أن يكتب بها في الظلمة، تزوّج هذا بعد أن صار عجوزاً ومنهكاً من المدعوّة إرْنِستينا، التي وضعت له قروناً، أمّا السبب الثالث فكان يسكت عنه، ويضرب على صدره ويقول، الذنب ذنبي، الذنبُ ذنبي، ولم أسمعه إلاّ مرّة واحدة يصيح بصوتٍ مرتعش:

– آه، يا فلِيب! إنّ قلباً مخلصاً يساوي الشمسَ والقمر!

نعتقدُ نحن أهل بيته في ميراندا أنّ السنوات التي قضاها هناك،

عاشها مُولّهاً بِدونيا خينبرا، السيّدة الرائعة، أسكنها الله فسيح جنانه، مسكتاً نيران الروح بالاحترام الذي كان يُكنّه ويبرهن عنه للملكة الأرملة.

لم يَبْدُ الإنكليزيُّ مُقتنعاً وقال إنّه كان يعمل بمنهج المدارس العليا ويجب أن يُلقي نظرةً على سجلات التعميد في المقاطعة وعلى أوراق دون مرلين إن أمكن ذلك.

- وعفّة مولاك هذه كفيلسوف لا بدّ أنّها ناتجة عن أنّه عجوز فهو في صباه وفي البلاط كان يستلّه بسهولة.

ضحك الإنكليزيّ، الذي كان على الرغم من بعض الخيلاء الناتج ربّما عن قامته القصيرة، رجلاً مهذّباً يتمتع بأخلاق القصر في معاملته وكان متحدّثاً متواضعاً. رفع القبّعة جالساً على مقدّمة الزورق ووضعها على ركبتيه وأخرج من جيبه مشطاً وسرّح شعره الكثّ وفرقه فرقين نحو اليمين ونحو اليسار، تاركاً خصلة متموّجة في الوسط، على الطريقة الدارجة يوم ذاك والمسماة "مواسون" وكان لعَيْنَيّ الإنكليزيّ الصغيرتين حيويةُ ذيلِ سحلية.

سأحكي لك في النزل بعضَ الأخبار القديمة عن سيّدك وآمل أن تردّ على ثقتي بأن تُقدّم لي أنت أخبارَ الساحر مِرلين خلال الزمنِ الذي قضاه في هذه الخلوة.

بما أنّ فليبّ د أمانثيا كان فضولياً دائماً في موضوع قومٍ ومدارسِ وفنونِ سيّدهِ ومولاهُ فقد قَبِلَ راضياً العقدَ مع الإنكليزيِّ، الذي قدّم نفسه باسم مستر جيمس كرَفِنْ، محامي الدفاع في المدينة والقمّص في كورنويلز والمخترع والمنفذ لما يطلبه فارسُ غالودن، ابنُ عمّ دون مِرلين.

- عن هذا سمعتُ السيّدَ يتكلّم -قال فليبّ- ويقول إنّه كان صيّاداً عظيماً وإنّه كتب كتاباً باللاتينية، مع البرهان على أنّ الأرضَ كرويّة ويُخرج من المعادلة الجهتين المتقاطرتين.

- هذا هو بالضبط موضوع تنفيذ الوصيّة. فقد أتى بالناقة إلى بلاد الغال كما يظهر من هذه القطع من الملابس الشتوية التي جاء بها وتركها لي بملحق الوصيّة المكتوبة بخط يده. كان صاحب الدثار هذا إصلاحياً.

شدّ مستر كرَفِن، واقفاً وسط المركب، رباطاً صغيراً ظهر من تحت رقبته فانكمشت التلبيبة في جسم السترة. شدَّ الآن زراً فبدّلَ القماشُ لونه وصار خطوطاً رماديّة وحمراء.

- والقبّعة ليست أقلّ امتيازاً. انظر، أضغطُ على السير، وها أنت ترى: صار أسود. صار باستطاعتي أن أدخلَ إلى مجلس صاحب السيادة ترورو. أضغط أكثر وتَفَاجأ: صار أبيض. سأذهب الآنَ لأتنزّه في غابةِ القلعة الصغيرة في الصيف. أرخي فأعود إلى اللون السكّري، الذي هو اللون المناسب للأسفار، نظراً لغبار الطريق. وفي الداخل، هنا محبرة، وهنا ريشة، وهنا ساعة من يدِ إيفانز موقّعة ومختومة. الساعة عامل مساعد كثيراً، لأنّهم في محاكم بلادِ الغال يُحدِّدون زمنَ الأدلة بالساعة الرملية ومعظم المحامين يسهون ناظرين إلى خيط الرملِ الذي يمضي من كأس إلى آخر ويضيعون بذلك خيطَ خطابهم. وأنا أقوم بالدعاء للملك أو للميثاق (كارتا ماغنا)، أحيّي باحترام، أقوم بانحناءة وأقرن الساعة بالمناسبة. لقد ساعدتني هذه الآلة على كسب أكثر من دعوى.

سُعِد فِليبّ بهذا الكمّ من الأخبار الجديدة، التي بدا أنّها تُعيده إلى

أيام ميراندا الطيّبة، عندما كان يعمل وصيفاً لدون مرْلين وكان هناك تنويعة من الزيارات الغريبة والمثيرة. قفز المسافرُ وصاحبُ الزورق بعد ربطِ الزورقِ إلى اليابسة. كانت أماسي أيّار في باثيوس تغصّ بالضباب المنخفض والنهر يمضي أخرسَ في تلك المخاضات، ولا يُسمع غير أصوات العصافير وصوتٌ ما بعيد. صعدا إلى النزل بينما أعلن فلِيبّ للإنكليزيّ أنّ هناك نبيذاً من ليون مصفّى جداً وأتمّ السنة، وهو رائعاً لمزاج الجسم البشريّ في الربيع. كان مستر كرَفِن، الذي راح يشرب بتؤدة شديدة، يملأ فمه جيّداً ثمّ يبلعه قليلاً فقليلاً، على الطريقة الجيروندينية حيث يتفادى، كما وضّح، الإفراطَ في دخول الهواء، الذي إذا ما دخل مع النبيذ استحلبه أكثر من اللازم وأفقدَهُ، ولاسيما الأحمر منه، اعتدالَه ومداهُ، وجده لطيفاً ولم يأخذ طعم القربة.

- منذ أن وُجد القطار -قال صاحب النزل، الذي كان يهتم باختبار المرق- صار النبيذ يأتي باشماً.

فتح الإنكليزيُّ حقيبةَ الجلد الأسود، أخرج منها بعضَ الأوراق، جرّ الكرسيَّ نحو النافذة وقال لفليبّ:

- سوف أقرأ لك أخباراً متفرِّقة، مأخوذة من هذا الكتاب وذاك، بعضها سمعتُهُ من الفارس غَالّودنِ وأخرى من أسفاري، وجميعها عن حياة وأعمال مولاك القديم، دون مرْلين، ساحر بريطانيا، وقد جمعت معظمها عندما جبت نصف أوروبا بحثاً واصطياداً لورثةِ الفارس غالّودنِ، لأنّه من أجل إيقاظ إرثِ هذا، النائم في فراشِ عدالةِ صاحب الجلالة الظريف في مدينة كارديف، يجب عليّ أن أملكَ، أنا المُنفِّذ، قائمةً كاملة بالورثة وأماكن إقامتهم. لا ينقصني الآن إلاّ أولئك الذين يمكن أن

يكونوا قد أزهروا على شُجيرة دون مرلين، وأولئك الذين بقوا من حفيدة مُرَتل المزامير في الكنيسة البرسبيترية، التي رحلت عن اسكتلندا مع مصوّر إيطالي، وبقيت بعدها أرملةً في مملكة أراغون تُقايض مباول وأواني طعام طلبيريَّة بثياب مستعملة.

أخرج مستر كرَفن من جيب صدرته عدسةً ذات إطارٍ فضيّ، ثم وبعد أن صفّى صوته بسعلتين خفيفتين قرأ بخُنّةٍ وخطابية:

مكان ولادة مِرلين

يبـدو أنّ مكانَ ولادة دون مِـرْلين كـان منطقـة مـكشـوفـة من غـابة دارتمور القديمة في بريطانيا العظمى، فيما وراء حوانيت الحدادة الحقيقيّة، على مقربة من تقاطع لوس ترِس أسيـينتـو (المقاعد الثـلاثة)، التي من المعـروف أنّ الجنيات كـانت تستـخدمـها كي تـرتاح وتحيك لأنّهم وجدوا عليـها نسالةَ صوف ناعـمة، وكان أوّل مـهد لدون مِرْلين من نجيل المرج، ففي المنطقة المكشـوفة من الغابة لم يحدث أن وُجِد قط بيتٌ ولا كوخ، وكانت تأتي من ستُصبح أمّاً هاربة، إذ ولكونها عـازبة كانت قد حملت من بائع أزرار، عـشـقهـا بينمـا كانت تطل من نافـذة في مدينة أيرلندا، حيث كان والده يعـمل حدّاداً رابعـاً عند الملك، وتَرِدُ هذه الغـراميـاتُ في قَصص الملك آرثر، كحدث طارئ، حيث يتحـدث عن صانعي السيـوف وأنسابهم، بل وهناك من يضعونها منفصلة بعنوان:

مسرحية المرأة ذات اللحية

كانت هذه المرأة ذاتُ اللحيــة الابنةَ الوحيـدةَ للحدّاد الرابع لملك أيرلندا دونتيش، المدعوة سْشيانابهان، التي تُتَرجم بـ "جوهرة النساء"، وما أن عُمِّدت، حتى ظهرت لحيتها، كثّةً ومتتالية وكان في الجهة اليسرى من الوجه شعراً حريريّاً أخضر وفي اليمنى أحمر مجعداً. وقد أُعجبَ بها الناس كثيراً، فصار الملكان يزوران بيتَ الحدّاد حين يذهبان معاً إلى تارا، وتزوره حشودُ الناس من كلّ الأصناف، لا يتعبون من الإطراء على صاحبةِ اللحيـة التي كانت تنمو لطيفة ومليحة وكانت مهذّبة، تبتسم للجميع. تعلّمت العزفَ على الجُنْك وكانت ماهرةً في فنّ التطريز. لكنّ اللحيـة كانت تُحاصر حبّها، فلم يكن في أيرلندا كلّها أمير، ولا محارب ولا متسوّل ولا فلاح ولا رقّاء يتجرّأ على حبّها أو طلبِ الزواج منها حتى وهم يعترفون بفخامة ملابسها، ولطف جسدها، وعذوبة نظرتها وصوتها، وجمال يديها والثروة التي كانت تحملها معها مهراً، كلّ ذلك بسبب لحيتها. كانت سشيانابهان ستُكمل الثانية والعشرين في عيد سان دافيد وبدأت تكتئب، ولم يكن هناك ما يمكن أن يقوله المرء بالنسبة للتخلّص من اللحية، التي كلّما حلقتها أكثر كلّما نمت بسهولة أكبر، وملأت خلال ساعات وجهَها الذي حلقته تواً بحجر خشن.

ما عادت ستشيانابهان تُغنّي برفقة الجُنْك، وصارت تبكي ويبكي معها الجُنك.

لكن الحبّ جاء. حدث أن مرَّ أمام بيتِ الحدّاد الرابع فتى يُدعى آتشي -أي النقرة الحمراء- ورأى صاحبةَ اللحية في النافذة، تُطرِّزُ صدارةً صوفية لعندليب صديق لها، وأصبح شادي الغابة المسائي عجوزاً وتعلُّه الشتاءاتُ. ردّت ذات اللحية بعذوبة كبيرة على سلام الفتى الفرِح، الذي دخلَ الكورَ دون مزيدٍ من التفكير وسأل خادماً كان هناك ينفخ بالمنفاخ عمّا إذا كانت تلك ابنة الحدّاد الرابع الشهيرة وعمّا إذا كانتِ ما تزال عازبةً. فقال آتشي عن نفسهِ إنّه يملك فرساً وَلاّدة في مرج من المروج القريبة من دوبلين يسمونها برجِيا ويومين من مطلع كلّ شهر من عمل طاحونةٍ في الكونوت وأنّ مهنته صناعة الأزرار، وهناك بالذات أمام الحدّاد الرابع عمل من قرن ثورٍ طقمَ أزرار معطف كامل مُقلّداً أزرار النفل رباعيٍّ التويجات. وجد الحدّاد الرابع وابنتُه أنّ الفتى يطابق هواهما تماماً فأنزلاه في حانوت الحدادة، الذي قال إنّه يريد أن يفرض على نفسه هذا العمل قبل أنْ ينتقل إلى الزواج.

راحت أيرلندا كلّها تتحدّث عن غرامياتِ صاحبة اللحية وصار صانع الأزرار في كلّ يوم أكثر سعادة لعثوره على تلك الجوهرة فراح يتحدّث عن الزواج في يوم سان مارتين في كوك. مرّ الملك شواس هايسيغ، أي الأذن المفلطحة، في طريقه إلى تارا، وكان واحداً من أبرز الملوك المئتين وستة وأربعين الموجودين في أيرلندا وقتذاك وأراد أن يُسلّم على الخطيبين وعندما خرج إلى الحقل بعد الغداء على انفراد من صانع الأزرار، سأله كيف حدث وعشق ذات اللحية وعما إذا لم يكن ذلك الشعر الملون عائقاً أمام الحبّ، فردّ الفتى صانعُ الأزرار:

- عشقتها، يا سيّدي الملك، عندما رأيتها تُطرِّز في النافذة، وبدا لي أنّ لها الوجه الجميل، مسندة خدّها الأيسر إلى الطارة، يرتاح على جزء من مرج أخضر، يطير في الصباح في الهواء وعندما التفتت إليّ لتردَّ على تحيّتي رأيت أنّ الجانب الأيمن احمرَّ خجلاً.

- إذن -ألحَّ الملكُ- ألم ترَ أنّ تلك اللحية بلونين؟

- لم يمنحني الحبّ وقتاً لذلك، خاصّة عندما صار كلّ شيء عندي أن أرى كيف كان صوتها العذب يأتي ليبحث عنّي في الهواء.

ذهب الملك شواس هايسيغ، الذي كان ابن ساحرة تحمل الاسم نفسه، في تلك الليلة ذاتها ليُقابل أمَّهُ. سردَ لها حديثه مع صانع الأزرار العاشق، وسألها عما إذا كان يوجد علاج للحية ابنة الحدّاد الرابع. بلى يوجد، تزرع حبّة جلبانٍ عطرٍ في أونصة من ترابِ غابة في كثافة اللحية، فتتغذّى حبة الجلبان هذه خلال نموّها على الشعر وحين تصل إلى الإزهار تزول اللحيةُ من وجه صاحبة اللحية النضرة. أرسل الأذنُ المُفلطحةُ الخبرَ مع حبّة جلبانٍ عطرٍ إلى صانع الأزرار متمنّياً له حبّاً أبديّاً، وأعراساً سعيدة وذرّية وفيرة.

لكن حدث أنّ العلاجَ لا يأخذ مفعوله إلاّ إذا كانت الفتاةُ التي تستخدمه محتفظةً بعذريتها، وإلا فمفعوله في اليوم السادس يصبح عكسياً، فيُغطي الشعرُ كامل جسدها. وما إن بدأت حبّةُ الجلبان تطلق جذورها حتى راح جسدُ الفتاة يكتسي بكامله بشعرٍ كثّ وعنيد، شديد التعرّق، شبيهٍ بشعر بقر الجبل. خاف صانع الأزرار من هول ذلك القبح وهرب إلى فرنسا، باحثاً عن عمل في أغيسغران، في خزانة ثياب النظراء الاثني عشر. بقيت سثيانابهان حاملاً في شهرها الخامس ويومها

الخامس. ولكي لا ينفضحَ أمرُها أمام أيرلندا كلّها، المشدودة إلى غرامياتها انتقلت خفية إلى بريطانيا العظمى برفقة مرضعة ووضعت طفلاً في غابة دارتمور، سمّته، حين عمّدته، مرْلين وكان يحكم في كلا البريطانيتين غالاين الكَسول، جدُّ الملك الأبديّ آرثر.

مدرسة لونغوود

دخل مرلين مدرسة لونغوود في الثالثة من عمره وكانت مدرسة أدبٍ وسلاح، حيث قرأ اللاتينية في الدوناتو واليونانية في خلاصة المنطق الإسكندراني والرياضيات البسيطة في أعمال ديوسكريدس والصيدلة في أعمال المدرسة الفرنسية والطب في كتاب إبوقراط، المفرقعات في كتاب بيرينغوش والطباع والحرارة في كتاب براسيلوس والكيمياء في كتاب جابر العربي، في الخامسة من عمره حلّ مشكلة المدخنة ذاتية التهوية، التي هي تربيع الدائرة في علم الطرق. وكان ذلك الصبيُّ النحيلُ سَمِلُ الشياب يُدهِشُ الجميعَ وهم يرونه بشَعْره على طريقة المتسولين، وعينيه اللتين تتقدان حيوية، يُناقش المُعَلِّمين ويقضي ساعاتِ الفراغ في تعلّم العبرية، التحولِ، فنِّ الحرب وهوميروس، بدل أن يذهب ويُطلق الطيارة الورقية، أو يلعب لعبة الضفدع. وقد كانت المرضعة قد كتبت عن رغبته في أن يتبع مونتبّلير في دراسة الطب، عند إتمامه الثامنة من عمره، إلى سيّدات غويرمون، اللواتي كنّ جنياتٍ خيرات، - لقين حتفهنّ في صقيع عام ١٦٢٧، المسمى غريغوري لأنّه حدث في يوم القديس سان غريغوريوس الذي باغتهنّ متقمصات زهراتٍ في حديقة كونتيسة أرملة في محاولة منهنّ لمعالجتها من كآبات الوحشة -،

وأرسلت الأخوات الثلاث ماء الهلال في جرّة مختومة، بجرعتين منه صار مرلين كابن عشرين، ذهبيَّ زغبِ الشارب، طويلاً وأغيدَ. لكنّ مرلين ذهب، قبل أن يُغادرَ إلى مونتبلّيير، إلى كور الغاليين الملكيّ وساعد في صنع سيف الملك آرثر "بّلانتاتا"، الذي غطّسه بماء سريّ جعله لا يصدأ أبداً. كذلك عمل بيده حفرةَ برس كاستل، المكونة من قناة مائية تطفو فوقها طبقة من التراب بارتفاع إصبعٍ غليظة تكفي لتُغذّي كميّة وفيرة من النباتات المتنوعة التي لا أحد ينتابه شكّ بأنّه يوجد تحتها ماء فيأتي الفرسان الأعداء خابّين وجريئين فيغوصون فيما ظنّوه عشبَ وحديقةَ الصيف الخالد. عندما كان مرلين منهمكاً في هذه الأعمال كان يرتدي ثوبَ المعلمين الملكيين الأحمر السابغ ويُخرج من الغمد العدسات المكبّرة من أجل أدنى شيء، حـــازمـــاً لا يخطو خطوة دون أن ينطق بحكم باليونانية أو اللاتينية، كي يتبجّح بالنصوص والمعارف. في قلعة برس كانت الأميرات البريطانيات يعملن آنسات مرافقات للكونتيسة العجوز، وكان مرلين يصعدُ أيّامَ الخميس إلى حجرة الدراسات ليُعَلّمَهُنّ علمَ الأنسابِ الأيرلندية والشعار الكاروليني وكذلك فنَّ الصيد بالصقور، والأحجار الكريمة والأعشاب الطبّية. بين الأميرات كانت تترعرعُ من ستُصبح الملكة الحصيفة دونيا خينبرا.

أتخطّى-قـال الإنكليـزيّ وهو يضع الأوراقَ ويُنظّفُ العـدسـةَ بالمنديل- إقامةَ ودراسةَ الساحر الشاب في مونتبلّيير وسفرَهُ إلى أيرلندا، بعد حصوله على شهادة الطب وفي كل ذلك لم يتخلَّ عن القلنسوة ولا عن التلبيبة الصفراء، وخرج الجمهورُ في كورك إلى الشارع كي يراه، وحدث هرجٌ ومرج من الشياكة التي ظهر بها، حتى إنّ المتسولين

والأطفالَ في دروب أيرلندا كانوا يطلبون صَدَقَةً منه راكعين على ركبهم في وحلِ الطريق وخاصّة على الجسور، خالطين بينهُ وبين الإمبراطور البيزنطي الروماني، الذي كان قد أعلن بشهادة فيفيانا العارفة أنّهُ سيذهب إلى بئر سان باتريشيو. وبطلب إرثِ الحدّاد الرابع -كانت الأمّ صاحبةُ اللحية قد ماتت في دير في كانتوربري، الذي انسحبت إلى كورسه كعازفة جُنك، بنزلة قلبية مع نوبات، وهو ما تطلّبَ تسعيةَ فَصْدٍ، ونظراً لأنّهم أجروها لها تحت برجِ الحوتِ وضعوا نهايةً للموجوعة- انتقل بنصيحة من صاحب نيافةٍ من بورغونيا أرادَ أن يضمّه إلى حاشيته، ككبير ذوّاقتهِ ومختلس سمعٍ سريّ، إلى سلمنكا كي يقرؤوا عليه فصلين دراسيين من الكتابة، وإلى طليطلة كي يلمّ بالعلم الكلداني والقبالة والإسطرلاب. وعن ما حدث له في طليطلة سأقرأ لكَ حدثاً واحداً وهو حدث سياسيّ عظيم: مرلين في طليطلة ١٦٥

مِرْلين في طليطلة

قـرّرَ الشـابُّ مـرْلين أن ينتـقل من مـدريد إلى طُلَيْطلة، فذهب واثقـاً جداً من أنّه ذاهب إلى مدينة عامِرة جداً بالشياطين واليهود والسحر والعلوم السرّية، لأنّه اشترى في نزلٍ في مدينة كامبو كتابَ إسحاق زيفار، اسم طليطلة السرّي، الذي كان قد كُشِف عنه قبل وقت قصير، والاسم اللاتيني "فاكس" الذي يعني جُذاذة. ويقولون إنّ زيفار المذكور صار ثرياً من بيعه هذا العِلمَ للكثيرين، الذين لم يذيعوا خبر لقياهم لاعتقادهم بأنّهم المالكون الوحيدون له. تعامل مرلين في مدريد مع فارسٍ من نابولي يُدعى دون بّانفيلو أتريسكو دِي بوتيْ جاءَ إلى إسبانيا ليتآمر على السيّد نائبِ ملك نابولي بالقرب من محسوب الملك الكاثوليكي، الذي كان آنذاك السيد دوق لِرْمَا. صارا صديقين في بيت فرنسية كانت تعمل في تجارة صباغِ الشعر الشائب وبعض اللواتي كنّ يقدمْنَ أنفسهنّ على أنّهن حفيدات لزوج كان لها، وكنّ ربيباتٍ مرحات وكان النابولي يُدْهَش في كلّ ساعة من علم مِرلين، وبخاصّة من فن تشفير الرسائل السريّة. خاف دون بانفيلو على حياته، إذ يبدو أنّ عملاء مأجورين للمجموعة المعادية كانوا يُلاحقونه وسألَ دون مرْلين عما إذا كان يريد أن يحمل بنفسهِ الرسائلَ التي جاء بها من المملكة إلى دوق لِرما الذي كان

يقضي الخريف في طليطلة ويعيره فريقاً كاملاً كان يعمل عنده كبائع متجوّل، يتاجر بالصابون والعطور والمساحيق الوردية ودبابيس الشعر. وافق مِرلين، الذي وجدها فرصةً سانحة للاقتراب من المحسوب ومن سياسة إسبانيا وأعجبته فكرةَ أن يدخل سراً في طليطلة السريّة.

على مرأى من إيّيسكاس اعترضت طريقَ دون مِرلين امرأةٌ سمراءُ حسنةُ المظهر، حافية القدمين وعارية الرجلين لتشتري منه بعضَ أقراط الطلاق، وقطعة من صابون الحامة. دفعت الصبيةُ ثمنها قطعة نقديةً فضّيةً وما إن وضعها مِرلين في الكيس حتى شعر بميل للذهاب وراء السمراء إلى حيث تحمله، ناسياً الرسالةَ السياسيةَ المستعجلة التي يحملها ووضْعَهُ ودراساته العليا، بل وحتى مكانتَه كقاضٍ في بورغونيا.

حملته المرأةُ إلى كوخٍ بالقرب مما يسمونه فيسو سان خوان، وراحت في الطريق تقول لمِرلين إنّه ليس أمامه إلاّ أن يتبعها، فقد كان يحمل في الكيس قطعة نقديّة من الشيطان. وكانت تسمّيه دون بانفيلو وراحت تقول له أشياء بالإيطالية. فقد كانوا يخلطون بينه وبين سيّد أتريسكو، ويبدو أنّ ذلك السحر كان قليل الأهمّية. في الكوخ كان الشيطان جالساً بالقرب من الباب، يكتب على طلحية كبيرة، باريا برشلونة. كان له قرن هائل أمامي وكان يُبعد بذيله الذبابَ، الذي عادةً ما يكون ثقيلاً في خريف لاس كاستيّاس.

حيّا الشيطانُ، الذي لم يُفصح عن اسمه، بتهذيب مِرلين مسمياً إيّاه بـ دون بانفيلو دِ أتريسكو، الذي لم يكن يجهل مقامه العالي وقال إنّه لن يُلهيه كثيراً لمعرفة ما اسم شطائر الجبنِ الأبيض، التي تُقلى في المقلاة بعد تغطيسها في البيض في نابولي.

يسمونها -أجاب مِرلين، الذي يبدو أنّه خطرت له في تلك اللحظة مساعدة دون بانفيلو- موزارِلا إن كارّوزا" وموزارِلا تعني الجبن الطريّ والرقيق، يكاد يكون قشطة.

سجّل الشيطانُ الاسمَ في زاوية من الورقة وباستعادته قطعة نقوده الفضّية من كيس مِرلين طلب من الفتاة أن تدلَّ البائعَ الجوّالَ المُزيّفَ على طريق طُلَيْطِلة.

وصل مِـرْلين إلى طُلَيْطِلة وارتدى، مُؤَمّناً من دوق لِرما ، الملابسَ الاحتفالية وذهب ليحمل الرسائل السرّية إلى المحسوب، وعندما سأله الدوق عن رحلته لم يتوانَ مِـرْلين عن أن يحكي له ما حدث في إيّيسكاس، فقال الدوق إنّها لا تتعدّى كونها سخرية من الصعاليك الخبثاء وضحِكَ وقال له إنّه يستطيع في مساء اليوم التالي أن يذهب ليستبرد في عزبة، يُقيمُ فيها حفيدٌ له حفلةً. ولم يكد مرلين يصل إلى العصرونية حتى ناداه المحسوب وقال له إنّ من المناسب أن يُصلّي على روح دون جيوليو، كونت جويني، وهو فلورنسي كان يعمل في خدمته السريّة، مات مسموماً في بيت الفرنسي في مدريد وإنّ السمَّ وضعوه له في "موزارِلا إن كارّوزا"، التي كان يُحبّها بنهم.

- أُتيحت الفرصةُ لدون مِرلين كي يذهب إلى إيطاليا مسافراً من بلنسية إلى أوستيا مرتاحاً تماماً في سكون حزيران. ولم يكد يصل حتى اشترى ما سأخبر عنه ضمن أخبار أخرى أُعنونها:

الرحلة إلى روما

جلس دون مِرلين تحت العريشة في نزل لوس غالِروس منتظراً حتى يُنعِلوا له البغلةَ البيمونتية التي استأجرها للسفرِ إلى روما، متأمّلاً صباحَ إيطاليا والزرقةَ البحرية، كان يحلمُ، جامعاً أجفان عينيه من وهج النهار الكبير، حين اقترب مُتَسوِّلٌ يطلبُ منه صدقة أعطاها له الساحرُ بأريحيّة كبيرة، المسكين الذي كان أعرجَ، بديناً وكثَّ اللحية جداً، عارياً من الخصر إلى الأعلى، والسروالُ الذي يرتديه كان قديماً، لواحدٍ من حراس البابا؛ مدّ سبّابته إلى أذنه وأدار خاتماً جميلاً تُزَيِّنُهُ ياقوتة، أخرجه منها وعرض بيعه على ساحر بريطانيا مقابل ملاكَيْن فضّيين من ملائكة المدن البحرية، رآهما في كيس مِرلين عندما فتحه هذا كي يُعطيه الصدقة. وجدَ الساحرُ العرْضَ مناسِباً جداً فأتمّ الصفقة. ذهب المتسوّلُ وهو ينحني له ويُحَيّيه بقبّعته الإسبانية المربعة، المُنَسَّلة والمرقَّعة، التي غطّى بها شعره الطويل، وبقي دون مِرلين يتأمّلُ الحجرَ الكريم، الذي حوّله نورُ الصباح اللاتيني من كلِّ وجوهِهِ إلى مرآةٍ، وبما أنّه سمع وقع حوافر بغلته في الفناء، لفّ الساحرُ الخاتمَ في منديلٍ حريريّ أخضرَ وخبّأ الجوهرةَ في جيبٍ سرّيٍّ موجود في قَبَّةِ الدثار القصير، الذي يستخدمه لأنّ الوقتَ صيف، وكان يحمل في الجيبِ مفتاحَ الرموز الذي ينطبق على

أمانة سرّ الملك آرثر، وإبرة مسمومة بماء الكاريبي، اشتراها في طُلَيْطِلة من شخص جاء من أمريكا. مفتاح رموز القنصلية الآرثرية هذا هو نفسه الذي كان يستخدمه اللاكونيون في اليونان ويُسمى في لغتهم "سكيتالِ" وبه كان يتراسل حكامُ اسبرطة الخمسة المنتخبون مع السفراء والاستراتيجيين، وهو عبارة عن قضيبِ زيتون طوله شبر ونصف، تُلَفّ عليهِ بشكلٍ ملتوٍ قطعةٌ من الجلد، يُكتَبُ عليها وهي ملفوفة هكذا من الأعلى إلى الأسفل بحيث إنّه عندما ينشرُ الجلدُ تظهر الحروف متفرّقة ولكي تُقْرَأ الرسالةُ على أن يعيد المُستلِمُ لفَّ الجلدِ من جديد حول قضيبٍ آخر له الأبعاد ذاتها.

وصل دون مرْلين إلى روما دون مستجدات كبيرة، سعيداً بمشيةِ البغلة الهادئة والمُهَدْهِدة، التي كان اسمها "تيرانا" ودخل المدينةَ من باب سان باولو، متوقّفاً قليلاً قبل أن يجتازه ليرى أهرامَ كايو ثِسْتيو. ومضى في طريق مارموراتا ليجتاز التيبر عبر جسر سوبليثو، باحثاً عن مأوى سان ميتشل الخيري، حيث كان سينزل مع شخصٍ كان رفيقه في مونتبليير ويُمارس وقتها الطبَّ في ذلك البيت، حيث كان لديه حجرة جيّدة. اسم هذا الطبيب الروماني مِيثِرْ أورلانديني وكثيراً ما كان يُصابُ بالكآبة حين كان يعيش في مونتبليير، متكئاً على يده في نافذة حجرته، وكان إذا ما سُئل عمّا يحدث له، يُجيب عادة :

- كنتُ أحلمُ بـ "كارثيوفي ألا جيوديا" (الخرشوف على الطريقة اليهوديّة) مع "سباغيتي ألا كارِّتيرا" وكنتُ أبلُّ الطعام بزجاجةِ نبيذِ مارينو الذي كان يروقُ لي من بين خمور كاستِلّي روماني.

كان عشاء دون مِرلين في ليلته الأولى في روما "ثيرلي كوي

بيسلّي"، شرب مارينو ثم وبعد أن تأمّل القمرَ قليلاً فوق الهضاب المشؤومة، دخل فراشه، بعد أن أطفأ الشمعة وما إن أغمض عينيه حتى رأى صورة أنثى ترتدي ملابس خضراء محيّرة تخرج من قبّة الدثار القصير حيث الجيب السرّيّ. وكان هذا الشبح، وكان بالفعل شبحاً، يُطل من النافذة نصفَ ساعة ويعود بخطوٍ قصير إلى مخبئه. تكرّر الحادثُ الغريب ثلاث ليالٍ، وبما أنّ مرلين كان يُبَدّل كلَّ ليلةٍ مكانَ الخاتم الملفوف بمنديل أخضر، وكانت تنبثق هذه الصورة الأنثوية من حيث كان الخاتم فقد توصّلَ الساحر إلى نتيجة مفادها أنّه يملك خاتماً مسحوراً. خبّأه تحت الوسادة فانبثقت الهيئة الجميلة واللطيفة بجانب رأس مرلين، معطّرة إلى حدّ أنّ رَجُلَنا ارتبك، بل واستعرَ قليلاً. لكن في الليلة الخامسة ولكي يبعد عنه الفحشَ وضع الخاتم في الجيب السرّي، بجانب الإبرة المسمومة وحدث أنّه لم يظهر أيّ شبحٍ. ذهب مرلين في صباح اليوم التالي إلى الجيب ليأخذَ قضيب المفتاح الصغير ويكتبَ إلى دون آرثر فوجد الجيب مليئاً بالرماد وذهبَ الخاتَمِ صار نحاساً والياقوتةَ الميتة زجاجاً مغبشاً، فحين وضعها في الشمس، التي بزغتْ صابغةً بالذهبِ جبلَ بّالاتينو، على الضفّة الأخرى، لم تعكس ومضةً واحدة. درس ميثر أورلانديني ودون مرلين معاً الحالةَ عند كورنليو أغريبّا، أرسطو وديوكريدس فعثرا على السبب: عندما راح الشبحُ يتجسّدُ وخزته الإبرة المسمومة بماء الكاريبي، وبما أن هذا الماء سمّ شديد التحليل فقد لاقى الشبحُ حتفه في مكانه.

كانت امرأة وكانت جميلة جداً -قال دون مرلين- ربّما كان هذا رماداً عاشقاً.

سار نازلاً إلى النهر ومن فوق جسر سوبليثيو نَثَرَ الرماد في مياه التيبر الذي حمله إلى البحر. مكث دون مِرلين كئيباً عند حاجز الجسر، تماماً مثل ميثرِ أورلانديني في نافذته في مونتبّلير، يحنّ إلى الخُرشوف على الطريقة اليهودية وخرجت من فمه أبياتٌ لاتينية، البيت الوحيد الذي أذكره منها :

"لتَحْمكَ الآلهةُ التي تسودُ قبرص"

وهو بيتُ شعرٍ لِهوراتيوس كرّره على مِيثرْ أورلانديني بالإيطالية: "لتَقُدْ خطاكَ الإلهةُ مالكةُ قبرص وأخوة هيلين وشهابان وأبو الآلهة"...

- لن أقرأَ عليك عودةَ دون مِرْلين إلى بريطانيا ولا الأيام التي قضاها في بلاط آرثر الملك الأبدي والمستقبليّ، فهذه موجودة في كتب التاريخ، التي تُقْرَأ في المدارس. يكفيني أن أقول إنّه لم يملك المائدة المستديرة صديقاً أفضلَ ولا مستشار أفطن ولا طبيب، وسياسي، ولا رفيق مثل الفارس دون لانثاروتِ دلِ لاغو، الذي أوصاه خيراً بدونيا خينِبرا عندما مات، وكان لانثاروت هذا على علاقة غرامية بدونيا خينِبرا بذريعةِ زوجها الملك، لكنّها كانت من تلك الغراميات القديمة والبلاطية التي لا تُلحِقُ بالمرءِ العار، حسب ما يقولون. سبق وقرأتُ لك بعضَ الأخبار التي كنتَ تجهلها وحنجرتي تعبت. ولكي أنتهي سأكتفي بأن أقولَ لكَ إنّ دون مِرلين كان يدرسُ في باريس موانعَ الصواعق على يد دون فرانكلين حين وصلته أنباء عن أنّه ورثَ، حسب رأي الأكثرية، خالةً له في مملكة غاليثيا، حيث نحن الآن. ونظراً لأنَّ من أصبح مولاكَ، كان متعباً قليلاً من ضجيج الدنيا، ولأنّ دونيا خينبرا خسرت بالثورة الفرنسية المواردَ التي كانت تأتيها من زيت حوت أَسقفيّة رينّيهْ في

بريطانيا وطلبت منه النجدةَ اتفقا على أن ينسحبا إلى ميراندا لينتظرا أياماً أفضل. عاشا في ميراندا أيّاماً يبلغ مجموعها ستين عاماً تقريباً، إلى أن رأت دونيا خينبْرا أنّ ساعتها دنت وأرادت أن تذهب لتموت في بستان صغير على مقربة من أطلالِ برِس كاستْل، تستمع إلى القبّرات وتُداعبُ رأس كلبٍ عجوز، أسود، لكنّه على أبواب الشيخوخة وقصير البصر....

- كان هذا كلبي نورس -صاح فِليبّ دِ أمانثيا-.ألم يكن أبيض السروال؟

- هنا يقول ذلك: "أسود نظيف ويرتدي سروالاً أبيض" -قرأ الإنكليزيّ في كرّاس.

كان هذا كلبي نورِس ! آهٍ يا صديقي!

وامتلأت عينا صاحب الزورق العجوز بالدموع. كان الليل يحلّ وحمامُ الطوق يحوم باحثاً عن سرير فوق أشجار بتولا وصفصاف الضفّة. طلع القمر مبكّراً فوق أرنيْرو. أشعل صاحبُ النزل قنديلَ غازٍ وصاح بابنته كي تَنزل لتضع المائدة، فالإنكليزي جاء يحمل جوعاً متراكما.

فهرس الأسماء

السِّرّ، سيدي محمّد بن.- مسلم تونسيّ كان يُسافر بجواز مرور من الباب العالي، يبيع حجرَ المغناطيس والعطور وكتبَ التاريخ. حصل من سوق تيلْسيت على المرآة السياسية لجمهورية فينيسيا وباعها في إلسِنيور لدونيا أوفِليا . أهدتها لِفِليبّ دِ أمانثيا مع رواية "ضرطة الشيطان"، التي كتبها السيّد غوي تارباريي، بحسب ما يلفت الانتباه الشاعر فرانسواَ فيلون في كتابه "الشهادة العظيمة".

ألمِيْدا، السيّد.- برتغاليّ كان يُرافِقُ لوثِرنا، الحورية اليونانيّة، المعروفة بِدونيا تيودورا، وكان ساعاتيّاً في تشافسْ.

أنغلور.- أميرة رودانو، قضت عاماً متخفِّيَةً في شمسيّة رجل دين قانوني من أفينيون، لا ترتدي غير حيائها وشعراً كان ينسدل على ظهرها حتى الشريطة الخضراء في كعبها الأيسر،. عشقها الوصيف فرانسواَ، باسمه السيّئ بيتشِغو.

أكيتانيا.- مقاطعة فرنسية تقع على يسار الطريق الفرنسي، عند الخروج من لوغو. وهي أرض مشهورة جداً بنبيذها ونسائها السهلات بحسب المثل:"أرض رمليَّة نزعة عهريَّة".

أفالون.- جزيرة يسكن فيها أماديس دِ غاولا، منذ زواجه من

وحيدة زمانها أوريانا. وهي واحدة من أقدم وأشهرِ جزر بريطانيا ، ويعني اسمها "الغامضة"

أفينيون.- مدينةٌ بابوات فرنسا ، مشهورة بجسرها. هناك يُشرب النبيذ الذي يسمونه شاتونوف دو باب؛ ومن يشربه في الخريف كمن يرتدي سترة مُبَطَّنة بريش الترغلة.

أفينيون القانوني، السيد راهب - مولى الوصيف بيتشغو، الذي اختبأت في شمسيته الحريرية الإيطالية الخضراء أنغلور ذات ليلةٍ من ليالي سان خوان. وكان مولَعاً جداً لموسيقى الطبل.

أوغوستو.- قيصر روماني تزوّج من دونيا ليفيا، التي كانت حاملاً من آخَرَ في شهرها الخامس.

بخارانو، دون خويبتو.- رجل سلمنكيّ حارب مع التشاريّ دون خوليان. كان رجلاً سريع الغضب. كان يُنهك فرس رئاسة دير ميِرا بطريقة ركوبه الريفيّة وكان شديد الانزعاج من الراهب خادم الإسطبلات.

بلأنيس، دون.- صيّادٌ مشهور جداً في منطقة ليون، ابنُ عمٍّ قُمُّصِ لوس بادوس العجوز، شارك في حفلات صيد الراهب مرينو، في فصيلة بريغانت، وفي فريق الكشافة. كان يشتري من الغريب إليماس !!~~ب التي تبحث في البارود.

بلفيس.- قصر يقعُ على بعد فرسخين من ميراندا ، كان يشرف عليه قزمُ قبعات القشّ. كانت تعيش فيه كونتيسات فولغار، اللواتي تربين على اللبَأ وكنّ يهوين كثيراً شرائط باريس، كان عندهن كلب بكيني علّمه دون مرلين صفيرَ موسيقى صباحية.

بلفيس، السيّد كونت.- كونت بلفيس الشاب ، الذي ذهب بقبّعة

مراشة مع قزمه حامل ذيل الثوب إلى جنازة ابنة عمٍّ أبي السيّد مِرلين. وكان مولعاً بالورق والقيثارة، وقد مات من قمرٍ باغته وهو يعزف موسيقى ليلية لأرملة صيدليّ، كان يرفع لها تنوراتها.

براغا.- المدينة التي كان يعيش فيها رئيسُ أساقفة البرتغال، وفيها قَبَرَتْ دونيا تيودورا ، الحوريةُ اليونانية، الفارسَ البرتغاليّ، الذي كانت تعتبره عاشقاً لها. فيها وقعت حادثة "إسمِرالْدينو". وفي أزمنة مضت كان يُصْنع فيها لعوق من البرتقال مشهور جداً، ماء العسل، الخاص بتبريد كبد كئيبي المزاج.

بريطانيا.- أمّة دونيا خينِبرا، مولاتي وسيِّدتي، كان لها فيها قصر وشجرتا ورد وشحرور. وهي مملكة كبيرة بين البحر والبحر وهي الآن مقسّمة، تحوّل أرتوس آخرُ ملوكِها، بعد أن انهزم في معركةٍ، إلى غراب.

الكلدانيون.- شعب يعيش في باطن الأرض، عثر خلال بحثه عن الأفعى سْماريس على العمود الذهبي الذي يرتاح عليه سهل العالم.

كاليلا. السيّدة- أميرةُ غزنة، اسمها يُعبَّر عنه بـ العسل المسفوح، تُخرب فِراشَ إمبراطور القسطنطينية ميكايلو كومِنّو، بهدف امتصاصه وقتله مع جيشه في رمال الصحراء. لا ترتدي إلّا جلجلاً ذهبياً في كعبها.

كاليودورا، الإمبراطورة دونيا.- مشهورة جداً في تاريخ الموضة البيزنطية، لأنّها فرضت الرسم على أظافير خناصر الأيدي، وعلى خنصريها، اللذين بالنظر إليهما من خلال الزجاج المكبِّر يظهر على واحد منهما الإمبراطور وحاشيته ذاهبين من القصر إلى مضمار الخيل، والزرقُ والخضرُ يهتفون وعلى الآخر رحلةُ صيدِ التُدْرُج في كولكيدا وصقور إمبراطورية تحوم فوق غابة الخريف الملوّنة.

كاسيلدا.- خادمةُ بيت دون مرلين، التي كانت دليلاً لأعمى أونس، أنجبت ولداً من صانع مظلات سِبسْ.

كاستِل، السيِّد.- خادمُ السيِّد أسقف باريس، الذي جاء معه إلى ميراندا بقاشعِ الشمس وقاشع الضباب. كان بديناً وأحمرَ، له خصلة شعر تُجعدها له صديقة، تعمل ساعيةً كابوتشيات شارع رو دِس لابّينز. كان موعوداً بصلاة رحمة من كورس سِنْز، لكنّه توفي قبل أن يتلقى الدرجات الرهبانية الصغرى بعسر هضم بشحارير بالبصل.

ثِريس.- قطّ أبرص وأعمى جاءت به دونيا خينبْرا إلى ميراندا، من سلالة قطط بريطانيا الملكية، شوارب هذه القطط مفيدة جداً لإخراج الرمل الذي يدخل في عيون الناس.

كوبيّون.- شيطانٌ عطّار ومُعَطِّر. ساخر جداً محتال كبير يَخدع أرملة في سُريا بكلمات الزواج وحجر نيزكيّ له رائحة سنبل الطيب البلنسي.

كورانتي.- شعب سرّي وقزم يعيش تحت الأرض وعملُهُ، بحسب كورنِليوس أغريبّا، هو حراسة الكنوز.

يتموّه الكورانتيون بكلابِ اللوحاتِ فنلنديّة كي يحيوا أعيادهم. يُقال إنّهم اخترعوا الإنبيق، ويصنعون به عرق الكمأة المشهور منذ أيّام باراثِلوس.

كريستوفورس.- المهيمن بالنسبة لليونانيين، أرسِل ليونيس في بريدٍ إلى ميراندا ليطلب منه الطريق الذي يسمونه " انزعْ وضع".

كرويثاس.- شيطان من بامبولنا حوّلَهُ دون مرلين إلى حزمة من القشّ المشتعل. كان مملوكاً للفاسقين. مرّر نفسَه في ميراندا على أنّه دون سيلبِسْتر، عمدةُ مدينة بوردو في جيروندا الدستوري.

ديان سانتياغو دِ كومبوستِلا ، السيِّد.- جاء إلى ميراندا ليشتري كسّارةَ جوز فضية لمجلس الرسول القديس.

إدينبورغ، سان أندرِس دِ. - مدرسة طبّ كانت تَستخدمُ العلقَ كثيراً. واحدة من أشهر المدارس المسيحية.

إليونورا، دونيا.- حفيدة كبير مفتشي نابولي عند السادة بّرزينزانو وفراكفيلاس. اشترت الشيطانَ-حوضَ الاستحمام في فوسّانو.

إليماس.- ساحِر غريب من السلالة الكلدانية.كان يكسب عيشه من بيع الكتب السريّة والفن وقصِّ الحكايات في النُزُل.

إلسينور.- قلعة في الدنمرك تمّ فيها اللقاء بين المسلم السِّر والسيّد المشكوك بأمره هاملت، وفيها كانت تعيش دونيا أوفِليا. وهي موجودة فوق البحر، حديقتها داخليّة، بسبب الرياح البحرية.

قزم بلفيس.- قزمُ بلفيس أو القبعات المراشة. لم يَعْرَف أحدٌ اسمَه قط. اعتبر نبيلاً، يحمل سيفاً، كان يُسَمّي نفسه السيّد مايسترِ (المعلّم). كان يحكي دائماً الحكاياتِ ونمائمِ القصور ودسائسها. كان كثير الغراميات، لكنّه مات عازباً. كلّ هوسه كان في جلب المِبْرَقة من لوغو إلى بلفيس.

إسمِرالْدينو، دون.- ديك البرتغال.

غواس، علمانيّ (خارج من الكنيسة).- كان يُدعى دون إرنسْتينو. وكان راهباً برناردينياً في مِيْرا، ويحمل في بنطلون جيبه مسدّس حراسة. من الأمة الريوخية. زرع فلفلاً حاراً من النوع الذي يسمونه "حرّاق الطيز" في كلّ حوش الكنيسة في غاوس.

فِليثِسْ.- مغنّ من كنيسة سانتياغو. كان يقرأ ورقَ الشّدة ويقرأ المستقبل بالساعة الشمسية والضربِ بالرمل.

فِلبّتو، السيّد.- النجار الذي صنع لأسقف موندونيدو لوبِّثْ بوريّكون الدراجةَ ثلاثيةَ العجلات من خشب البلوط.

فلورِنْدا، دونيا.- أرملة سُرِيّة غنية جداً عشقت الشيطانَ كوبيّون، عطّار باريس.

فلوتِ، مستر جون.- عازف ناي في حجرة اللورد سويت. رافق قِطَعَ ليدي تير، أسكنها الله فسيح جنانه، إلى ميراندا. مؤلّف سوافانز بافان ("رقصة البجعة)، كلماتها لأرملة أسقف ليفربول الإصلاحي. وكان نهماً في تناول الفاريناتو.

فوغ، ليدِي.- عمة ملوك تولِ، عاشرت كوّاءً فرنسياً يكوي بالنشا في فرساي، لأجلها جاؤوا بالزنابق من فرنسا.

فرويلان، سان.- سوق لوغو الشهير، حيث شاهد فِليبّ دِ أمانثيا في مسرح تياترو إيديال مأساةَ دون كروثِسْ، الذي سمّمته حفيدة له، خطب ودَّها دركيّ.

جابر العربي، دون.- معلّم العلوم الكيميائية الذي درس مولاي دون مِرلين على يدِه في دمشق الإكسيراتِ والتحولات المعدنيةَ.

غالوس، مستِر.- طبيبُ خديوي مصر الإنكليزيُّ، أدخل النيلوفر في دستور العقاقير البريطانية.

غاولا.- مملكة وجزيرة في البحر المفتوح، منها جاء تاج دون أماديس، وهي الآن جزء خفيّ من الإمبراطورية البريطانية المجزّأة.

غَزْنا.- مملكة ومدينة في القسم الشرقي من الإمبراطورية البيزنطية. . يحكم فيها سبعة أمراء عمالقة، أبناء رجلٍ أحدبَ، وجميعهم من بطن واحدٍ وليس للسبعة من امرأة أخرى غير كاليلا، التي

ينامون معها بحسب القمر، يمنحونها كلَّ سبعةِ أقمار قمراً للراحة في مسبح.

خِينِبرا، السيِّدة عالية المقام والنبل والقوة، دونيا.- كانت مولاتي وملكة بريطانيا.

جيوفلنّي دِ ترِفيسو، دون.- دوق من دُوَقةِ أراغون، حامل راية الكنيسة الرومانية المقدّسة. تزوّج من ليدي تير، ومات بالبرص في فلورنسا.

هيري، ميس.- طبيب سان أندرِسْ في إديمبورغ، أعاد الحياة لليدي تير.

هاملتْ، دون.- السيّد ملك الدنمرك، أميرٌ حزين وشكّاك، شكوكه وموته تُعْرَضُ على المسارح.

ابنة دونيا كارولينا.- يتجادل الناس حول اسمها الحقيقيّ، مع الشك بأنّها عُمِّدت باسم قديساتِ يومِ ولادتِها، وهكذا كانت تدعى فيريسيما بومبوسا كابيتولينا رومانا روليندْسْ. ذهبت إلى تولِهْ لتتعلّمَ التطريزَ وصناعة حلوى اللوز. كانت أميرة الكلدانيين، الزوجة الموعودة لِدون باريس. خطفها ميس سبِندل، وحولّها إلى حمامة طاووسية الذيل.

هوغونوتِ دِل ريّول.- شبحٌ فرنسيّ من بيتِ ريول في أستورياس في أوبييدو. أراد الراهب لافيت أن يأخذه معه إلى الحجّ إلى سانتياغو دِ كومبوستِلا في قارورة زجاجية من مورنانو. كان يُضْمِرُ، كما يلاحظ من جوابه، بكلّ حنقِ البروتستانتي ضدّ دون خوبيتو بِخارانو.

لافيت، القسّيس.- رجلُ دينٍ فرنسيّ حجّ إلى كومبوستِلا، ولم يكن يُشبه قساوسة الروايات الفرنسيين في شيء. برز في صيدِ فراخِ

الدجاج الرومي لأعيادِ الفصح وكان الطلبُ عليه كبيراً جداً في غويّنا ومدوك كي يلقي عظةَ خلع المسامير (الإنزال عن الصليب). رأى وهو طفلٌ حالِم، رئيسَ الملائكةِ سان ميغَل أثناء قدومه من مشاهدة الثيران المزودة بكرات الخشب في فيك-فنزاك.

لِونيس.- وصيف الإمبراطور ميكايلو كومْننو. جاء من الصحراء إلى ميراندا بحثاً عن الطريق الذي يسمونه "انزع- و-ضع" وكان من عشّاق السيّدة كاليلا د غَزنة.

ليانيو، إل. - حانيٌّ باثيوس. كان صاحبَ نزْلٍ عند مربط الزورق.

ليانيو، حفيدُ إلْ .- ذهب إلى صيدلية ميْرا ليشتري الترياق المناسب وحبوبَ العسل المهدّئة لِمسيو سيمبّلون، صائدُ تروتة مشهور وكان أوّل من صاد بالذباب في البلد. كان لديه زورق في سِرنانْدِس لاجتياز نهر مينيو. مات وهو يعملُ محصّلاً لضرائب بلدية لوغو، متزوجاً من برتغالية هي ربيبة لا خنروسا.

لوثرو.- حصان البيت. وهجين من سلالة بلدية وأمريكية. كان يُحرّك ذيلاً أبيضَ طويلاً.

لوثرو.- قاشعةُ ظلمة أسقف باريس، عندما يفتحها في الليل الدامس فإنّ من يمضي تحتها يرى كما في النهار.

ليون.- مدينةٌ وسوق في فرنسا، شهيرة بالحرير ومشروب الكرز الروحي. يُقارنها بعضهم بمدينة دِل كامبو.

ماماريا، دونيا.- الأميرة البيزنطية، صاحبة الفأر الأبيض الظريف جداً، الذي كانت تُزين رأسَ ذيله ثلاثُ بقع سوداء.

مانولا دِ كارلو.- خادمةُ المنزل، التي علّمتُها بصقَ نواة الكرز. تزوّجتُ منها حين أصبحتُ مراكبيّاً.

مرثِلينا، السيِّدة.- حفيدةُ كاتب أثومارا العمومي وكبيرةُ الطباخات في ميراندا. كانت تُغْرَم بالمسافرين ولم يكن هذا أمراً سهلاً. عندما ذهب دون مرِثْلين فتحت مطعماً شعبياً.

مِيْرا.- دير البرناردين، سانتا ماريّا لا ريال في مِيْرا، بجانب منبع نهر مينيو. فيها بغالٌ شهيرة جداً باعتدالها وهزهزة خطوها، وصيدلية شهيرة ومدرسة ديوكريدس للمعارفِ الطبية البسيطة ومعالجة البلغم لتيوفراستو باراثِلوس. وهو الآن خربة.

مرِثْلين.- سيدي ومولاي ومعلّمي الذي لا أقول " أسكنه الله فسيحَ جنانه"، لأنّه لم يصلني خبر عن وفاته.

ميكايلو، الإمبراطور دون.- حاكم القسطنطينية ، كومْننو أنجليس لاسكاريس، مصاب بفواق خلقي، ولد بينما كانت أمّه، السيِّدة الكريمة تخبُّ فلم تنزل عن ركبها كي تَلِدَه. ضائعُ في رمال الصحراء.

ميرابيليا.- إحدى قاشعات شمسِ أسقفِ باريس كان صاحبُ النيافة يستخدمها في عيد العَنْصَرة وعندما يكون المتكلم تحتها يكتسب مَلَكَةَ اللغات.

موندونييدو.- مدينة في غاليثيا، مذكورة في مقدّمة "دون كيخوتِ"، يذكرها ثرِبانتس كي يتكلم عن عاهراتٍ شهيرات، كتب عن حياتهن الأسقف غفارا. فيها أسواق مشهورة في عيد سان لوكاس، كما أنّها مشهورة بخيولها الجامحة وحديدها وعَتَقها وعسلها. فيها وُلِدَ السيّدُ كونكيِرْو، الذي هو من وضع هذه القصص في رواية. يُسْمَعُ فيها شدوُ ماءِ نبعِ فونتبْييخا، وهي غنيّة بخبزها ومياهها وبساتينها المعزولة التي تحتوي على جِمالٍ وبرتقال وشحارير ولاتينية.

زوجة الحداد.- ابنة غندور هوموسو الأكبر. جاءت أمّه يافعة جداً متزوجّة من مُبَلِّط نوسْتِ فعشقها نبيل هوموسو، الذي كان يصنع هناك القباقيبَ منذ أن رآها، ورغم كلّ ما فعله الزوج الغيور إلا أنّه لم يستطع أن يبعد الباشقَ عن الحمامة، وبما أنّه كان رجلاً مسالماً، ويكسب رزقه من جهده، فقد راح يردُّ عندما ولدت أرخيميرا، إذ بهذا الاسم كانت قد عُمِّدت الوليدةُ الحديثة، على سخريات من يشهدون على النطحة الهائلة التي كالها له الشريف هوموسو، قائلاً: " بما أنّ عليّ أن أقتله أو أتركه...".

نابولي.- بندقية السيّد مِرْلين ذات السبطانتين، هديّة جنديّ بالرمو السويسري الشاب إلى مولاي، حين ألّف له هذا مقطوعة لحن الكلب بِرّيس، وهو كلب ألماني أسود، معه براءة من البابا لصيد الحجل في كاستلغاندولفو.

نِي. - كلبُ البيت.

نيستال، ورموالدو.- مَارَغاتي (ليونيّ) كان عنده حانوت في منثنال. عُرف أنّه رجلُ ذئبُ عندما شنق نفسه في غابة سنديان دونْياس.

نوسّوليني، دون بييرو.- صاحب النيافة، كبيرُ محاكم تفتيش نابولي والصقليتين وجزيرة كابري، طرد الشيطانَ الذي تحوّل إلى حوضِ حمّام في فوسّانو كي يرى بشكلّ أفضلَ الراهبات العاريات.

نوفاس، صاحب المعالي.- مُرافِقُ الحوريّة اليونانيّة دونيا تيودورا. ذكرت الصحف أنّه عندما وصل إلى لوثِرنا مع الأنابولينية، دلّلتهُ هذه كثيراً أثناء الطريق، وهناك ذهب نوفاس مع الحوريّة إلى أعماق البحيرة. كان يملك حانوت لوازم خياطة ورثته حفيدة له متزوّجة من نسّاج ينسج،

بتكليف من المجلس، الجواربَ البيضاء لأمراء بيت براغانثا، الذين كانوا قصيري السراويل كما يظهر من لوحات الرسم.

أسقف لامِغو، السيّد.- أسقف لامِغو (في البرتغال) الأعرج: كان عنده آلة أريستون من بروكسل، وربّى غراباً يتكلّم اللاتينية. كان يشتري من مسيو سيمبلوم كراتِ ثلج وعلبَ موسيقى. نظم ملحمة اللوسيادات شعراً بالبرتغالية متبعاً نموذج اللوسيادات ثمانيةِ المقاطع وكان يُعلّم رهبانَه صنع المايونيز بنفسه عندما كان يقوم بزيارةٍ رعوية لهم.

أوميغا، دون.- كبير ساعاتيي سويسرا، من أهل مدينة جنيف.

بول وفرجيني.- رواية برناردان دي سان بيار كانت كونتيسا بلفيس الشقراء الصغيرة تقرؤها باكيةً عندما كانت حاملاً بغندور بالمونت.

بول وفرجينيا.- صفصافتان على ضفّة نهر مينيو، في لائحة ممتلكات دون مِرلين في ميراندا (لوغو).

باريس.- باريس فرنسا، مدينة أسقفِ قاشعاتِ الشمس وقاشعات الظلام، على ضفاف نهر السين. للشيطان كوبيّون هناك حانوت عطور وصابون مُعطَّر. نساؤها مشهوراتٌ بأنّهن من ريش. هناك خصوا المعلّم أبِلاردو بسبب غرامياتٍ له مع حفيدة راهبٍ قانوني تُدعى إلويسا، من ابن الاثنين، إسطرلاب جاء آل فيِّليرز دِ ليزل- أدام، أقرباء سيّدي مِرلين. وهي مدينة مشهورة بثرواتها وغشّها.

باريس، دون.- أمير شعبِ الكلدانيين الأقزام، الباحث عن الأفعى سماريس. كان يريد أن يسكّ من العمود الذهبي نقوداً.

بارسيفال، دون.- فارس من بريطانيا، كانت تروي دونيا خينبِرا قصّته شعراً، وكيف راح في طلب الحُقّ.

بِتــروس مــونوس ، دومــينوس.- رئيس دير مِيــرا ، الذي تدرَّب في قلنسوتِه الوصيفُ البيزنطي القزم، الذي جاء في طلبَ فأر دونيا ماكاريا.

بيتَشغرو.- لقبُ الوصيف فرانسوَا ، العاشق لداما أنغلور ، أميرة النهر ، لمجرّد أنّه لمحها في ليلة سان خوان عاريةً على جسر أفينيون الشهير.

روفاس، الحاج إسماعيل بن سينا.- شيخُ الصحراء ، الذي تَسمَّم لأنّه شمّ بطيخة. خاصي الجِمال، وصاحب بساط الريح.

سال-إل-سول (اخرجي، يا شمسُ).- مظلّة أسقف باريس، التي عندما يفتحها في صباحِ صعود سيّدتنا (العذراء) تطلعُ الشمس حتى ولو كانت تُمطِر.

سكارفلي، الأمير دون.- موسيقيٌّ فرنسيّ، الكواء بالنشا في فرساي. الهدف الثابت لليدي فوغ، ملكة تولهْ، التي كان التوليون يأتونها بزنابق فرنسا الشهيرة بقوّةِ السلاح.

سغوبيا.- كلبُ ألانيّ لصاحب الجلالة دون كارلوس السابع، الذي تبع أثرَ الرجلِ الذئبِ في جبال ليون.

سيلِبسْترِ، دون.- شخصية محترمة اتخذها الشيطانُ كرواثاس لنفسه حينَ جاء إلى ميراندا مع دونيا سيمونا المسحورة.

سيمونا.- أميرة من أكيتانيا ، سحرها الشيطان كرواثاس، استعادت في ميراندا صورتَها الطبيعيّة، فائقة الجمال، التي لن أنساها أبداً.

سيمْبلون، مسيو .- ساعاتي كان يعمل لصالح السادة دُوَقَةِ سابويا ، استعد للموت في باثيوس، سافر إلى لامِغو، كي يحمل إلى المطران كرات الثلج.

سماريس.- أفعى من سلالة سلتية، تلمُّ بلغتين، ستعملُ بيوضُها من الأقزام الكلدانيين شعباً من العمالقة، ويُقال إنّ غارغانتوا فُطم بملعقة من بياض واحدةٍ من هذه البيوض.

سُريا.- مدينة السلالات، رأس إكسترِمادورا الخالص. عاشت فيها دونيا فلوريندا، التي عشقها الشيطان كوبيّون.

سبّيندلِ، ميس.- حاكمة تولِهْ، امرأة متقلّبة المِزاج، خطفت ابنةَ دونيا كارولينا المنمنةَ.

سويت/ لورد.- سيّدُ القلعة وبلد مردوف في بريطانيا العظمى. تزوّج من ليدي تير. مات في حديقةٍ في روما.

تاديو.- شيطانٌ كثُّ الشواربِ، جاء إلى ميراندا كخادم راجل للشيطان كرواثاس. مات على مشانق ملك فرنسا في مدينة بّونز بتهمة الكلام مع الدجاج والتغوّط في المداخن. عمل صانعاً عند خياط في طليطلة. دائماً كان يدفع بنقود الدورو الإشبيلية.

تاراغونا.- مدينة في كاتلونيا، حيث جثليق كل الممالك الإسبانية، فيها خمور فرِحة جداً، كان الشيطان كوبيّون يقولُ إنّه يملك فيها قصراً.

تير، ليدي.- جمالٌ فضّي، أعادها ميس هيري إلى الحياة ،تزوّجت لاحقاً من اللورد سويت، وتكسّرت في حديقة رومانية.

ترِمار.- نَزْلُ طريق سانتياغو في أراضي دير مِيْرا الملكي، يُسمونه الآن سوق الأربعة عشر وغالبية أهل المدنية من المَغاراتيين والسانَبريين.

تيلسيت.- سوق مشهور جداً في بروسيا، يُعادل سوقين من سوق ليون أو أربعة من سوق مونترِوسو في غاليثيا، تسع أمم مختلفة تضع ثقلها ومترجميها فيه.

ترورو.- مدينة أمراء كورنوبيا تحوّلت فيها إحدى يَدَيّ حفيدة قُمُّص ترورو إلى فضّة. درس دون باريس، أمير الكلدانيين، في تلك المدرسة وكان يتوقف في فندق كمٍّ كبير رؤساء الكورس. فيها غابتان داعرتان بالشحارير، وهي غنيّة بينابيعها.

تولِهْ.- مملكة في أقصى الصقع الشمالي، آخر يابسة بعد طريق العمالقة، خصبة بأطبائها، ولها حكومة سرّية مثل فينيسيا وتقوم على قراءة المستقبل.

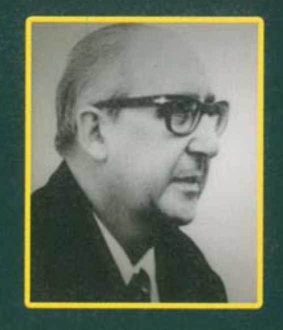
توربين.- حصان البيت. صِنابيّ عظيم في جريه.

فِرميل، مونسِنيور.- نائب عن مدينة كالايز، استولى على الحوريات، اللواتي كان يُمثّلُهن في روان، في محكمة جسر بونتِ ماتيلد. كان شديد التبجّح بصداراته.

أرملة أسقف ليفربول، السيِّدة.- وضعت كلمات لموسيقى "رقصة البجع" للمستر فلوت. وكانت في كلّ عام تنظم في كوبلاتٍ (طقاطيق) تقاويم كي يستخدمها الإصلاحيّون الإنكليز. تزوّجت للمرة الثانية من حلاّق سان-جيمس كورت، الذي كان إيطالياً من فيسول وكان يملك سرّ التجعيد" على طريقة الريح العاصفة" الذي درسه في روما من خلال تسريح شعر شاتوبريان في سفارته. في ليلة العرس ذاتها انفصل الإيطاليّ عن الأرملة الأديبة، لأنّ وركيها كانا صناعيين.

ويندسور.- قلعة ملوك إنكلترا، إلى حيث أرادوا أن يأخذوا ليدي تير لتتزوّج، ولكي يتَحَسَّسَها الملك، الذي كان أعمى وأراد أن يقتنع شخصيّاً بجمالها الفائق، كما كانوا يصوِّرونها له. إنّه مكان شديد الريح.

الفهرس



تدور أحداث هذه الرواية في غاليثيا (جليقية) حيث يعيش الساحر مرلين، رابطاً بهده الطريقة سحر هذه المنطقة الإسبانية بالأساطير الأرثرية لفرسان المائدة المستديرة. وبذلك يجمع ألبارو كونكيرو بين التراث الأدبي، وتقاليد غاليثيا الشعبية، بين السحر والواقع. تتعلق المسألة بواقع لا يبقى في المحيط الأطلسي بل يصل إلى مناطق كثيرة من الأرض، على يد ساحر لا ينسى سوريتنا الحبيبة «وكان أن وافقتُ على كل شيء وتفاهمت مع القائد العسكري كريستوفوروس، الذي قال لي إنه وبدل أن أتخذ وجهة الريح البحرية عليّ أن أتخذ وجهة الريح الشرقية وأنزل في طرابلس التابعة لأنطاكيا، ومن هناك أتابع سفينة ملكية وأنزل في مرسيليا، ثم أتابع في الطريق الفرنسي وأنزل في القسطنطينية، ومن هناك إلى ميراندا في يوم واحد، وأن السيد مرلين، الذي هو صديق حميم له، سيعيرني ذلك الطريق الذي جاء به من بريطانيا ملفوفاً على أسطوانة حديدية ويُسمى طريق كيتايون (انزعْ وضعْ)، بحيث إنني ما إن أستقرّ على طريق حلب في سورية ،...»

سيعرف القراء من خلال صفحات هذا الكتاب سلسلة كاملة من المغامرات والشخصيات التي تتراوح بين الواقع والخيال، بين الغرب والشرق، كما هو حال الحاج إسماعيل بن سينا روفاس، شيخٌ من الصحراء، خاصي جمالٍ وصاحبُ بساط ريحٍ، حظّه سيئ أنه شمّ حبّةَ دراق.







ISBN 2-84306-109-x

